العزلة في زمن الإنترنت

رامز رمضان النويصري

1

(في مديح العزلة) هو عنوان تدوينة كنت نشرتها عبر مدونتي الشخصية (مالاخير)، واستشهدت فيها بجزء من حوار مع الدكتور "مصطفى محمود" (1921-2009م)، والذي لخص فيه سبب عزلته وابتعاده عن الناس، فيقول: (الحياة في نظري؛ أن الإنسان يختلط وينعزل!! لأن عملية الاختلاط هي امتصاص للخبرة والتجربة، والعزلة هي هضم للخبرة والتجربة!!!).

هذه التدوينة نشرت في بداية أبريل الماضي، مع بدايات الحجر الصحي بسبب جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد 19). وكنت أحاول أن أخفف بها بعضاً من وطأة العزلة التي تعرض لها الكثير، وغيرت من نمط حياة الكثير، وأجبرتهم على السكون بدل طبيعة الحركة التي جبل عليها الإنسان.

فقد أجبرتنا هذه الجائحة عن التخلي عن حياتنا التي اعتدناها منذ لحظة خروجنا لهذه الدنيا، ومن الطبيعي أن هذا الحدث قد أوجد حالة من الضيق والاكتئاب والفراغ في نفوس كثير من الناس.

ففي تدوينة صوتية (بودكاست) للمدون والإعلامي "طارق الميري"، وعلى لسان مجموعة ممن علقوا بسبب هذه الجائحة، أجمع الضيوف؛ على أنهم يعيشون تحت ضغط نفسي كبير، وأن حساب الأيام لم يعد مهماً بعد الأسبوع الثاني، وأنهم يقضون الوقت في تصفح الإنترنت، أو الترحال في الذاكرة.

2

في قصة (الرهان) للأديب الروسي الكبير أنطون تشيخوف (1860-1904م) في القرن التاسع عشر، تحكي القصة: أن مصرفياً يملك ثروةً طائلةً راهن محامياً بأن يدفع له مليوني روبل إذا استطاعَ أن يَعيش مُنعزلاً في حبس انفرادي خمسة عشر عاماً. وقد سجن المُحامي في غُرفة صغيرة وكان يشعر في أيامه الأولى بالوحدة الشديدة والاكتئاب، لكنه مع مرور الوقت بدأ يلج إلى عالم الكتب ويسبح في بحار العلم، فدرس اللغات والأدب والفيزياء، ثم قرأ الإنجيل وتاريخ الدين والفلسفة، وقرأ روايات شكسبير وبايرون .

ولما اقترب موعد انتهاء المدة وشارف المصرفي على خسارة ثروته، ذهب إلى غرفة السجن فوجد السجين قد غادر عزلته قبل انتهاء المدة بوقت قصير وترك له رسالة كتب فيها: (حين قبلت الرهان كان هدفي الحصول على المال، لكني قبل انقضاء الوقت بقليل قررت الانعتاق من سجني والانطلاق إلى الحياة فقيراً).

3

ينظر أكثر الناس إلى العزلة بأنها عقوبة ثقيلة على النفس، لكنها في الحقيقة نعمة عظيمة، بل هي ضرورة وجودية. وهنا قد يقول قائل؛ إنه ثمة فرق بين العزلة الاختيارية، والعزلة الإجبارية أو المفروضة، كما هو حال الجائحة التي فرضت هذا العزل!!

قد يكون لهذا التعليق وجهة نظر صحيحة، لكن سواء بالاختيار أو الفرض، فإن العزلة موجودة ومتحققة، والسؤال الذي أراه مهماً: كيف يمكن التعامل أو التعايش مع العزلة؟

4

العزلة هي أن ينسحب الإنسان من الأشياء وأن يبقى مع جوهر ذاته، منعزلاً ذاتاً وروحاً، وتكاد تجمع كل العقائد على فائدة العزلة وأهميتها في الوصول إلى الحقيقة، وقدرتها على اكتشاف النفس والذات البشرية، والتغلب على رغباتها وكبح شهواتها .

فالإنسان في حياة التواصل يظل مشغولاً عن نفسه بما تمليه عليه الحياة من متطلبات، ليضيع بين الواجبات وتلبية الاحتياجات. وهو -أي الإنسان- يخشى مواجهة نفسه لأنه لا يريد الإنصات إلى النداء الداخلي المنبعث من روحه. العزلة تجلي للإنسان ذاته الحقيقية

بينما يطمس التواصل والاتصال هذه الذات، والذات الحقيقية وحدها التي تبقى مع الإنسان لأنها جوهره.

5

هل نحن نعيش عزلة حقيقية؟

في زمن الإنترنت والتواصل يمكن للمرء أن ينعزل جسديا، لكنه لا يغادر ضجيج الحياة ويبقى في دائرة لغو الناس ولهوهم، وهنا أعود لبودكاست "الميري"، إذ يؤكد جميع ضيوف الحلقة، أنهم ما كانوا ليقوموا لولا وجود الإنترنت، كونه يوفر بيئة تواصل جيدة على مستويين؛ الشخصي والمهني.

فإن كانت العزلة قد تحققت جسيداً بالانعزال عن الحياة الاجتماعية العامة، إلا أن الحياة استمرت من خلال الفضاء الموازي وبفاعلية، عبر شبكة الإنترنت حيث يمكن للفرد أن يعيش الحياة ويدير شؤونه وهو في مكانه، بل إنه يوفر الكثير من الجهد والطاقة، ويحقق الكثير من العوائد المادية، ويعود على البيئة بالفائدة في تقليل الانبعاثات الحرارية والتلوث.

في زمن الإنترنت، والتواصل، حيث تكون المسافة إلى أبعد نقطة على الأرض كبسة زر، أو كتابة كلمة بمحرك البحث؛ فإنه لا يمكننا القول إننا معزولون بقدر ما نحن في حقيقة الأمر متواصلون، وهو ما نجده يتحقق بشكل يومي، فالتواص من ناحية فكرية وفلسفية صار جوهر الكثير من المسائل التي تهم الإنسان، وفي ظني إن هذه الجائحة التي غزت العالم (كوفيد 19) أثبتت إن مبدأ العزلة الذي عرفه النساك والعارفون والأقدمون بشكل عام، صار صعب التحقق، فالتواصل عبر الشبكة والمنصات أوجد حالة كبيرة من التعاون والتعاضد، وأنتج الكثير من أشكال الإبداع، وحقق مستويات عالية من التعليم والتعلم، فكل ما تريده يمكنك الوصول إليه، والانتقال إليه من مكانك. الأمر أشبه برحلة في الزمن تختار الزمن والوقت الذي تريد وتتجه إليه.

في زمن الإنترنت: أنت حي.. أنت تتواصل!!!

عن علاقة الثقافة بالمشهد الليبي الراهن

د. فوزية بريون

من المؤسف أنه وبعد مرور قرابة عقد من الزمان على انتفاضة فبراير نجد أنّ بلادنا قد صارت على شفا الإنهيار الكلي، بعد سلسلة من الإنهيارات الجزئية على الصعيد السياسي والإقتصادي والإداري والإجتماعي، بل والأخلاقي؛ أدّت تداعياتها المعقّدة إلى هذا التحارب والإشتجار بين جناحي الوطن. وبالنسبة لأكثر الدارسين، تبدو الأزمة الليبية سياسيّة في المقام الأول، وذلك استناداً إلى قائمة الأخطاء التي ارتكبتها الأجهزة التي تولّت تسيير البلاد منذ فبراير؛ بدءاً من المجلس الإنتقالي وهيئته التنفيذية، وصولاً إلى المؤسسات المتعدّدة والمتصارعة على مسرح الممارسة السياسية؛ في الوقت الذي تتنازع فيه الوطن سيناريوهات خطيرة، وتتكالب عليه قوى شرسة، داخلية متصارعة، وخارجية مجاورة وبعيدة، تغريها حالة الفوضى والإنقسام التي أنتجت بيئة جاذبة للمنظمات الإجرامية، المحلية والإقليمية والعالمية.

والنظر إلى أزمتنا الراهنة بمنظار السياسة يعود إلى أن السياسة، كانت وما تزال، العامل الأقوى في تشكيل تضاريس الثقافة والإقتصاد والإجتماع؛ بل وفي توجيه مسار المعرفة، ومنظومة القيم ورموز المجتمع. وليس هذا سمة خاصة بليبيا، وإنما هو سمة مجتمعات العالم الثالث عامة1. ولذلك فإن مختلف تفاصيل المشهد الليبي توحي بأن مشكلتنا في الأصل سياسية، وأن جميع مظاهرها قد تولّدت عن الفراغ السياسي الذي أحدثه انهيار نظام بوليسي عتيد، وتخبّط نخبة لم تتكوّن في بيئة حرة نقية، ففقدت لذلك القدرة على امتلاك رؤية مستقبلية متكاملة، ناهيك عن تطبيقها .

تتعمّد هذه الورقة مخالفة هذا الطرح السائد، لتنطلق من فرضية أخرى، وهي أن أصل أزمتنا البعيد يعود إلى الثقافة في المقام الأول، وأنّ منظومتنا الثقافية وأنساقنا الإجتماعية هي التي أنتجت النظام السياسي السابق، الذي نال منّا على

مدى أكثر من أربعة عقود، أوعلى أحسن الفروض سمحت بإنتاجه، ورعته وأسهمت فيه؛ إذ لا مجال للشك في أن هناك علاقة وثيقة بين السياسة والثقافة، وأنهما يتبادلان التأثير والتأثر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم الثقافة المطروح إنما يُقصد به معناه الأنثربولوجي لا معناه المعرفي، وذلك على الرغم من العلاقة المتشابكة بين المعنيين. حيث أنّنا نقصد هنا النظر إلى الثقافة باعتبارها إطاراً للتربية والسلوك، لامساراً للتعليم والمعرفة. ذلك أن هذا الأخير إنّما يتحدّد بعمليات إدراك الحقائق وربط المفاهيم، بينما يتحدد الإطار الأول، أي السلوكي التربوي، بما يتمثّله الفرد ويُدخله من مكتسباته المعرفية في حياته العامة وسلوكه اليومي .

فإذا نظرنا إلى العلم والمعرفة باعتبارهما عمليات تحليلية تصنيفية لحقائق الحياة والكون، فإن الثقافة بالمقابل، هي عمليات تركيبية تطبيقية تنعكس بطريقة عفوية على مجالات الحياة المختلفة. وعليه فإن الثقافة، التي نرى أنها تشكّل جذور أزمتنا الحالية، ليست علماً يُكتسب، وإنما هي "مجموعة من الصفات الخُلقية والقيم الإجتماعية التي يتلقّاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولي من الوسط الذي يولد فيه. والثقافة بذلك هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته."2 وكما يؤكد برهان غليون، فإن الثقافة ليست في الحقيقة " إلا المجتمع نفسه وهو في حالة وعي، وعي بذاته وبأجزائها وبمظاهرها المختلفة السياسية والإقتصادية."3 ويشبّه مالك بن نبي وظيفة الثقافة في المجتمع بوظيفة الدم في جسم الإنسان، إذ يعتبرها المركّب الذي يغذيه، حاملاً أفكار النخبة وحاملاً أيضا أفكار العامة، مشكّلاً منهما تلك الإستعدادات المتشابهة، والإتجاهات الموحّدة، والأذواق المتناسقة؛ فالثقافة بذلك هي " الجو المشتمل على أشياء ظاهرة، كالألحان والأوزان والحركات، وعلى أشياء باطنة، كالأذواق والعادات والتقاليد. بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين، وسلوك الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في مجتمع آخر"4.

وبناء على اعتبار أن الثقافة أصل أزمتنا، فإن تصور إصلاح الوضع الليبي عن طريق تنفيذ حزمة من الخطط السياسية أو الإقتصادية التي تمكّن من بناء دولة عصرية، تقوم على مرتكزات الدستور والتمثيل النيابي والفصل بين السلطات، وعلى مبادىء الديموقراطية المختلفة، من ترسيخ قيم المواطنة وحرية الرأي وإنشاء الأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني.. إلى

آخر القائمة، دون أن يسبق هذا أو يتزامن معه مراجعة ومعالجة وتنقية منظومتنا الثقافية، وإصلاح منطلقاتنا الذهنية والمفاهيمية والسلوكية، فإن خططنا السياسية ستتعرض للعرقلة والنكوص، وربما تبقى مجرد صورة ركبت بطريقة القطع من تجارب الآخرين، واللّصق على صفحة الواقع المأزوم، دون انتباه إلى حقيقة أن أي إصلاح سياسي أو دستوري، وأن أي نهوض تنموي إنما يستدعي تهيئة البنى التحتية الكفيلة باستثارة الدوافع، وتوفير المبررات النفسية والعقلية المجتمعية، التي هي شروط إنجاح المخطّطات السياسية المنشودة.

وإذا حاولنا تشخيص حالتنا الراهنة، والبحث عن الجذور الثقافية الراسخة التي أسهمت في تعقيد المرحلة الإنتقالية وتمديدها، فلابد من لفت النظر إلى أن الأسباب الظاهرة في هذا التشخيص قد تبدو لنا متلبّسة بعناصر السياسة وخططها ودهاليزها المظلمة؛ غير أن الأسباب الخفيّة الفاعلة هي تلك التي تتخلّق داخل منظومة الثقافة وأنساقها، وفي حزمة القيم، وطريقة الفهم، ومنهج التفكير، ومظهر السلوك والفعل. وهي في الحقيقة، الأكثر تأثيراً في تحديد الظروف والمراحل التي يمرّ بها المجتمع، وفي نوع المصاعب التي يعانيها، لأن منظومة الثقافة تلك إما أن تكون ديناميكية قابلة للإيجابيات مقاومة للسلبيات، وإما أن تكون عكس ذلك خاملة ضعيفة، قابلة للإستجابات السالبة المستثارة فيها بأبسط الضغوط.

وتسليطاً للضوء على أكثر العوامل تأثيرا في منظومتنا الثقافية، التي أنتجت لنا هذا الواقع المتأزّم، بعد قرابة عقد من اتخاذ قرار التغيير وإزاحة النظام الفاسد، تبرز أمامنا العوامل التالية:

أولاً: الإستبداد:

لا شكّ أن الإستبداد قد شوّه نفسية ووجدان الإنسان الليبي، وبنيته الذهنية ومحاكماته العقلية، وذلك عبر عصور طويلة. فلقد عاني شعبنا على مدى تاريخه من الفقر وقلة الموارد، وشحّ الطبيعة وتصحّر البيئة، وتسلّط الأغراب، وانفصال الفئة الحاكمة عن عامة الشعب، وتعسّف الدولة المركزية. وقد أوجد ذلك في النفوس ما يمكننا تسميته بـ "القابلية للإستبداد" (استعارة للمفهوم البنابي "القابلية للإستعمار")، حيث أدّت كل تلك العوامل إلى إضعاف المجتمع ونكوصه أمام التحديات، وأدت إلى تخوّفه من العواقب المجهولة، ولا غرابة في هذا، فأمثلتنا الشعبية تزخر بما يشجّع على

توخي السلامة، وتجنّب المخاطرة، والإبتعاد عن المشاكل .

أما بالنسبة للعقود الأربعة، أو الخمسة، الأخيرة التي عاصرها جيلي والجيلين من قبلي ومن بعدي، فلقد أناخ الإستبداد بكلكله علينا منذ بداية العقد السابع من القرن الماضي، وتأكد لنا بأنه، كما ذكر الكواكبي، " داء أشد وطأة من الوباء، وأكثر هولاً من الحريق، وأعظم تخريباً من السيل، وأذل للنفوس من السؤال"5 ذلك أن هذا الإستبداد لا ينال من الحكم والسلطة والثروات فحسب، ولكنه يُحدث كذلك تشوهات نفسية وذهنية يصعب علاجها ويطول بقاء تداعياتها. ولقد كان رأس النظام السابق من الدهاء بحيث أعدّ وخطّط ونفّذ وأشرف على تأسيس ثقافة للإستبداد والقهر والفوضى، التي تُشوه الإنسان في فكره وضميره ووجدانه وأخلاقه، وفي نظرته لذاته وغيره وللعالم والحياة. حيث أنه لاشكّ قد وضع البرامج المدروسة الممنهجة، والآليات النافذة، الهادفة إلى إعادة تشكيل عقلية الإنسان الليبي، وتشكيل شخصيته في قالب يمكّن المستبد من التحكم في توجيه أفعاله وردود أفعاله، وفي طريقة تفكيره وأسلوب حياته وأخلاقه وسلوكه؛ بل وفي أذواقه وعاداته وحاجاته، ووشائجه التي تربطه بمن حوله!6 ولم تكن وسائله إلى تحقيق ذلك إلا شعارات سياسية، وخطط إقتصادية وإعلامية، واستراتيجيات إجتماعية ونفسية، استطاعت أن تُحدث ما أحدثته من تغيّرات ذهنية ونفسية عبر عمليات التدجين والتطويع، وخطط التجويع، وسلب الأملاك والأموال والحرّيات، وممارسة التخويف والتهديد والسجن والتغيّيب. وما عمليات التصفية الجسدية في الداخل والخارج، والإحتفاء بها وعرضها على الشاشات، إلا وسيلة من وسائل إحداث أبشع التشوّهات التي تجعل من شعب مجرد قطيع. حدث كلّ ذلك فأسهم في تقوية " القابلية للإستبداد"، الكامنة في عقلنا الجمعي.

ولذلك.. فبالرغم من قضائنا على المستبد، ورقصنا على جثته بطريقة ساديّة، فإنه ما زال على مدى هذه السنين، معشعشاً في تلافيف عقولنا ودهاليز لاوعينا.. وما زال يحكمنا وهو في عالم الأموات، حيث أصبحت الضحيّة تتماهى مع جلادها، فتقوم بنفس الممارسات التي كانت ترفضها منه وتُدينها، من فسادٍ وإفساد، ومن تآمر وخداع، وانتهاك للقانون، بل ومن "زحف وتصعيد وتطهير"، بكل ما تحمله من عمليات الخديعة والمكر والتآمر والسطو وافتكاكٍ لحقوق الآخرين؛ وإن أتخذ كل ذلك في هذه المرحلة مسمّيات جديدة،

مدعومة بكل ما غُرس من شوق دفين لإمتلاك الثروة، وافتكاك السلطة، والإستحواذ على السلاح. ولا غرابة أن تمتد هذه الممارسات لتشمل ما كان يقوم به الجلاّد من خطف واغتيال للمعارضين، وتصفية للأعداء المخالفين، وتفجير لبيوتهم، الفعلية كمساكن، أو الإعتبارية كسفارات .

وهكذا.. تتلبس روح الجلاّد ضحيتها، وتتبادل معها المهام، وتنقلها إلى نفس موقعها، لتتعامل بنفس منطقها. فإذا استمرأت الضحية الدور تفوقت على جلاّدها، وإذا ما تمكّنت من جلاّدها نفسه فإنها لاتكتفي بأن تفعل به ما فعل هو بها.. بل تتجاوزه لتفعل بالقاسم المشترك بينهما، الذي هو في هذه الحالة الوطن، مثل ما فعل الجلاّد به.. وأكثر!7

وفي غمار هذا الوضع المتردّي من الإنحلال الإجتماعي والأخلاقي، تفقد النشاطات الفردية والفعاليات الإجتماعية مبرراتها، " وعندما تفقد الحياة كل معنى، والنشاطات كل قيمة، لايرى الأفراد تحقيق ذواتهم لا في هذه المهنة ولا في ذلك النشاط، لكن فقط في التوحّد والتماهي مع السلطة، وفي طلب السلطة، وفي الصراع للوصول إلى أعلى قمة فيها. تصبح السلطة والتسلّط هما القيم الوحيدة الممكنة، ويُولد لدى كل فرد وفي روحه متسلّط صغير"8.. وهكذا يُعاد انتاج الإستبداد، ويُصبح ثقافة مترسّخة، وبؤرة جامعة لجميع الخصائص السلبية الفردية والجماعية، ويفقد المجتمع مناعته ضد الإنحدار والإنهيار.

ثانياً: سؤال الهويّة:

يمكن تعريف الهويّة بأنها التصوّر العقلي والنفسي والوجداني للذات الجماعية في تفاصيل الزمان والمكان. وهي مرجعيّة جامعة للفرد في إطار الجماعة، وللجماعة في تنوع سمات أفرادها. فهويّة الشيء هي ماهيته، أي ما يكون به الشيء مطابقاً لذاته، متميّزاً عن غيره.

وتشمل الهويّة عدة مستويات، بعضها جوهري ثابت، وبعضها الآخر عرضي متغيّر، محكوم بتحولات الواقع وتقلبات الظروف. والهويّة بهذا المعنى " هي نسق من الموروثات الحضارية ومن الأسئلة والأجوبة المتعلقة بالكون والسلوك الإنساني، ومن المعايير الأخلاقية والعقائد الدينية... وهي كذلك مجموع التراث الثقافي والحضاري الذي ترثه جماعة ما عن ماضيها مما يساهم في تشكيل كيانها.9"

وهناك أنواع متداخلة من الهويّات: فردية للأشخاص، وعرقية للجماعات الإثنية، وإقليميّة (مدن أرياف صحارى واحات)،

وجهويّة (شرق غرب جنوب شمال)، وثقافية (حسب القيم والعادات والممارسات السلوكية). ولكنّ الهويّة الجامعة الشاملة التي تنصهر في بوتقتها كل الهويّات الثانوية هي الهوية الوطنية. ولذلك تحتاج هويّة الجماعة إلى بقعة جغرافية تكون مركز انتماء، ومسرح تاريخ، وبؤرة تجارب مشتركة. وعليه فإن الهويّة تتبلور، في السياق المعاصر، على أرض الوطن الأم، ثم في إطار الأمّة الأكبر، وقد تمتد تشابكاتها بدرجة أقل إلى تخوم الإنسانية الأرحب، لتُثري أبعاد هويّتها فكرياً وفلسفياً ووجدانياً.

ولقد طُرحت في ستينيات القرن الماضي دعوة ذات علاقة بمسألة الهويّة، ألا وهي الدعوة إلى " الشخصية الليبية" التي أطلقها آنذاك، في خطاب عام يوم 21 نوفمبر 1967، 10 رئيس الوزراء الشاب المثقّف، عبد الحميد البكوش. وهي دعوة على صلة وثيقة بموضوع الهويّة؛ إذ تهدف إلى تعزيز مستوى رئيسي من مستوياتها وهو مستوى الإنتماء الوطني، وجعله زاوية النظر الأولى للذات الفردية والجماعية، باعتباره بؤرة التراكم التاريخي لكل الليبيين .

كانت الفكرة بسيطة وواضحة ومباشرة؛ تهدف إلى جعل الوطن يحتلّ مكاناً مركزيّاً في وجدان كل ليبي وضميره، وكانت مجردة من التسويق الأيديولوجي الذي كان يصبغ تلك المرحلة. ومع هذا فإن أصحاب المدّ القومي، الذي أحبطته هزيمة 67 وأفرغت من شحنة خطابه الحماسي، قد انبروا لمحاربة هذه الفكرة، واتهامها بأنها دعوة إنعزالية إقليمية تنكفيء بليبيا على نفسها؛ وأنها على أحسن الفروض ""كلمة حق يراد بها باطل."11 ولهذا وجّه زملاء البكوش من المثقفين القوميّين عموماً، والناصريين خصوصاً، حملاتهم ضدّ هذه الدعوة وضدّ الجانب التعليمي الذي تزامن معها12 ، ولكنّ أمد تلك الحملات لم يطُل، إذ شهدت البلاد انقلاب سبتمبر وبدأت مشاهد النكبة الليبية تترى وتتوالد.

ولكنّ صاحب الدعوة، لم يفقد إيمانه بجدوى فكرته، خاصة وهو يتابع من منفاه تفاصيل إنهيار الوطن الذي وُلد من رحم جهاد الأجداد ومكابداتهم، فأراد أن يستدعيها إلى ذاكرة الليبيين، وأن يقدّمها من جديد علّها تضيف بُعداً مهماً إلى رؤى المعارضة، التي ازدهرت في الخارج في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي؛ فكتب في عام 1996 مقالاً أرسله إلى مجلة شؤون ليبية13 الصادرة في المنفى، بعنوان "الشخصية الليبية"، لخّص فيه الفكرة الأساسية، التي هي عبارة عن تعزيز الإنتماء الحق لليبيا البشر وليبيا الوطن. فلقد لمس في الستينيات عدم وعي الليبيين بتاريخهم،

وعدم انشغالهم بقضايا وطنهم، والإنخراط في تطوير مستقبلها ومستقبلهم، فقام آنذاك بطرح هذه الدعوة إنطلاقاً من حقيقة " أن الليبي لن يستطيع المساهمة في بناء أمة عربية أفضل إلا بعد أن يفرغ من إنجاز وطن ليبي أفضل وأقدر."14 رادّاً على معارضيه القدامى بقوله " إن حصر الإنتماء إلى الأمّة وإنكار الشخصية الوطنية، هو تشتيت لفكرة الإنتماء ذاتها، وهو يشبه التركيز على الإهتمام بالوطن والدولة، وإغفال المنطقة والمدينة والأسرة."15 مؤكداً على " أن الإنتماء للأمة أمر أوسع من أن تتحرك فيه إرادات الأفراد، بل الطريق إلى الأمة يمرّ بالوطن؛ فلن تقدر على فعل شيء للأمة العربية إذا لم تفعل كلّ شيء من أجل أجزائها ".16

ولكن هجمة الإستبداد الشرسة التي بدأت في 69 كانت قد تسلّمت المشهد، فكان أول ما عبثت به وفرّغته من محتواه هو الهويّة الوطنية والشخصية الليبية، وجماع الخيوط التي ينتسج بها الكيان الليبي الهش. وسيكون من باب الإطناب والتزيّد في الكلام التعرّض لتفاصيل ذلك، فلنكتف بالإشارة إلى العوامل التالية:

*القطيعة شبه الكاملة بين الشعب وتاريخه الحقيقي، حيث تعرّض ذلك التاريخ إما إلى إهماله والتّقليل من قيمة رموزه وأحداثه، إو إلى التجزئة والتشويه والتزوير.

*النيل من مقدسات الليبيين العقدية، بتجرؤه على الطعن في الدين، وتحريف القرآن، وتفسيره على هواه، مع إنكار السنة النبوية، وتغيير التقويم الهجري، وتكذيب المعراج، وإنكار سنة زيارة المسجد النبوي؛ بل أنه قد وصف الكعبة بأنها " آخر صنم مازال قائماً من الأصنام" 17.. والقائمة طويلة.

*التبشير بالعروبة والوحدة العربية ورفع شعاراتها والبذل في تسويقها، ثم الردة عنها والتعريض بالعرب، ونعتهم بأحقر الأوصاف، وإهانة الرؤساء العرب، والجامعة العربية، وتحقير كل ما هو عربي. والتحول بعدها نحو الأفريقية ثم العالمية، عن طريق توسيع منظمات " أصدقاء الكتاب الأخضر" المزروعة في العالم.

*الإدّعاء بأن " القرآن شريعة المجتمع" في حين أنه قد تبنّى شريعة الغوغاء، بفرضه " الكتاب الأخضر" و"النظرية العالمية الثالثة" وتسخير الأموال والأقلام والعقول للدعاية لذلك.

*جعل المجتمع الليبي حقل تجارب؛ وذلك بتدخله في كل أمر، وفرض آرائه التجريبية في التعليم والثقافة والسياسة

والإقتصاد والإعلام، وجميع مناحي الحياة.. وهي تجارب متغيّرة متقلّبة خاضعة لشخصية سيكوباثية متسلّطة. ومما لا شك فيه ان أكثر تلك التجارب ضرراً بالهوية هي المتعلقة بالتعليم، الذي وسمت مخرجاته بالضعف الشديد في المستويات الدنيا والعليا على السواء.

*إلغاء اسم ليبيا العريق، المحفور في وجدان أجيال ممتدة، واستبداله باسم مركب ثقيل هو" الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى" والذي يتم اختزاله بعد ذلك في كلمة "الجماهيرية". وقد أسهم ذلك في أضعاف الهوية الموحّدة لليبيين لدرجة لم يعد الشباب فيها يشعرون بأنهم ليبيون18.

*تصفية الطبقة المتوسطة بقرارات مثل (البيت لساكنه، شركاء لا أجراء، تأميم التجارة..) ومنع التمثيل النيابي والنشاطات السياسية الأخرى (من تحزب خان، التمثيل تدجيل، اللجان في كل مكان..) وإلغاء القوانين، وإعلان "الثورة الثقافية" التي أدت إلى تأميم الصحافة الخاصة، ومهاجمة المكتبات وحرق الكتب التراثية في الميدان، ثم منع تعلّم اللغات الأجنبية. ثمّ إعلان "الثورة الإدارية" التي قضت على مرتكزات الدولة.

*منع الأقليات العرقيّة من ممارسة عاداتها وتقاليدها الخاصة، وحرمانها من التسمي بأسمائها، وتدريس لغتها، و إقامة احتفالاتها التراثية، وذلك عملاً على صهرهم في " المجتمع الجماهيري."

*تجفيف منابع الثقافة والفكر والتوعية والإبتكار، بإلغاء الأنشطة المدنية الحديثة، كالمكتبات العامة ودور المسرح والسينما، والفنون الراقية التي من شأنها تنمية الذوق وشحذ الطاقات وإطلاق المواهب، وكذلك منع دخول الصحف والمجلات، وقصر استيراد الكتب على مؤسسة واحدة تابعة للنظام. هذا كله أدّى إلى أن تُحرم الأجيال من تلقّي دروس في الأدب الليبي، أو الفنون الليبية، أو التراث، أومعرفة أبطال التاريخ والأدباء والشعراء، وغيرذلك من وسائل تغذية الهويّة.

*إنتشار الفساد السياسي والإداري، وتمكين وتفضيل أفراد "اللجان الثورية" وإظهارهم بمظهر الصفوة في المجتمع، وجعلهم قدوة للشباب المحروم من فرص تنمية الذات والمزايا المادية والمعنوية، وذلك بغية استقطابهم وتجنيدهم لخدمة أغراض النظام، وتوريطهم في ارتكاب مالا يُرضي الضمير الحي.

كل هذه الوقائع، وغيرها كثير، قد أضرّ حتماً بالعناصر الفاعلة في الهويّة الليبية،

مما جعل الليبيين مشوشي التفكير، موزعي التوجهات، متناقضي الإنتماءات. وصارت صورة ذاتهم الجماعية ملتبسة عليهم وعلى غيرهم. وقد استمرّ الحال خلال العقد الأخير. بل إن الممارسات السيئة التي تؤتى جهاراً نهاراً، مما ينكره الدين والعرف والأخلاق، دون أن يكون هناك رادع يوقفها، أو قانون يعاقب عليها، لتوحي للشباب والصغار بضعف المجتمع الذي تستمد منه الهويّة.

ثالثا: القبليّة:

تعتبر القبيلة من أقدم أنواع التجمّع البشري ذات الوظائف الضامنة لتحقّق الأمن المجتمعي، وحل النزاعات. وهي مؤسسة تقوم على روابط الدم والقربى، كما تقوم على غير ذلك من الإرتباط التوافقي التعاقدي. ومعروف أن القبيلة عماد المجتمع الليبي، بما كان لها من دور إيجابي في مراحل التاريخ المختلفة، وعلى الخصوص في مواجهة المستعمر الفاشي، وتنظيم صفوف المقاومة وحروب التحرير.

أما القبليّة التي نشير إليها هنا، فهي نزعة نفعيّة برجماتيّة تهدف إلى تغليب مصلحة القبيلة وتمكينها في مضمار السياسة والإقتصاد، والدخول في اللّعبة السياسية ودواليب إدارة الدولة بقيم القبيلة واستراتياجيتها، وذلك من أجل تحقيق الغلبة، والوصول إلى الغنيمة، وخدمة مصالح القبيلة، ومحاباتها والتمكين لها؛ كل ذلك على حساب قواعد العمل السياسي التي تزكّي الكفاءة والقدرة الإدارية، وتحارب الفساد، وتقوم على مباديء الدولة المدنية الحديثة، المبنيّة على قيم المواطنة والمشاركة والمقدرة، بغضّ النظر عن الإنتماء القبلي.

ولا يخفى على الدارس حقيقة أن القبائل كانت، تاريخياً، تبحث عن دور سياسي تعهد به إليها السلطة المركزية؛ لتمنح ولاءها لتلك السلطة، مقابل إعفائها من الضرائب أو تخفيفها. ومن الجانب الآخر كان دعم السلطة لهذه القبيلة أو تلك مرهوناً بدور القبيلة في جمع الولاءات من القبائل الأخرى، وتأمين إلتزاماتها تجاه تلك السلطة19. وفي الحقبة الأخيرة، عمل القذافي، في بداية حكمه، على كبح جماح القبيلة وعدم الإعتراف بها، وخاصة في فترة حماسه القومي وحتى أواخر السبعينيات، ثم ما لبث أن انتبه إلى خطورتها وما يمكن أن تلعبه من أدوار، فأحياها ولعب على نعراتها العصبية، وثاراتها الداخلية، وشجّع تناقضاتها، موظّفاً كل ذلك في ترسيخ نظامه، مشترياً ولاءاتها بالإغراءات المادية، والمناصب العسكرية والسياسية والإدارية، ومعتمداً

على بعض رموزها في ترتيب الشؤون الأمنية على تخوم الجيران العرب والأفارقة. بل إنه قد أنشأ للقبائل كياناً رسمياً يوهمها فيه بالمشاركة السياسية، فتأسست " القيادات الشعبية الإجتماعية" لتكون هيئة جامعة للقبائل بمختلف أصولها، وذلك من أجل متابعتها والتحكم فيها وتجنيدها لصالح نظامه.

وقد سبق كل ذلك ترسيخ مشروع بدونة الحياة عامة، والسياسيّة خاصة، تكريساً لشعاره في انتصار الخيمة على القصر، حيث ساعدت القبيلة في تهيئة الأرضية المناسبة لتلك البدونة، وساعدت النظام السياسي في سياسته الحثيثة الهادفة لفرضها وتحويلها إلى نمط عيش20. وصارت القبائل في "الجماهيرية" تُدير وتُدار عبر "مؤتمر الشعب العام"، وأصبح أبناؤها قيادات "اللجان الثورية" و"مكاتب الإتصال الخارجي"؛ وقد قامت بجهودهم الحثيثة الأنشطة المختلفة العاملة على تسويق النظام وتثبيته. وصار الفرد الفاعل داخل تلك الأجهزة لا يعبّر فقط عن هويته الفرديّة، وإنما عن مرجعيته القبليّة، مبرهناً على ارتباطه بجغرافية القبيلة أكثر من ارتباطه بالوطن21. ولقد أسهم هذا كلّه في عمليّة تقويض الدولة وتخلّف المجتمع، وعرقلة كلّ تطوير وتحديث للبلاد، وكلّ هذا يعود إلى أن " أزمة العقل القبلي أنه لا يمكنه أن يكون قبلياً ووطنيا في نفس الوقت"22، وهو ما يجعل القبيلة في هذا السياق،عنصراً سلبياً باعتباره يدعو إلى العصبية، ويفاضل بين الناس على أساس الإنتماء القبلي وليس على أساس المقدرة والعمل23.

والقبيلة في المنظور المعاصر هي" نقيض الدولة. أي عندما تقوم الدولة المدنية بكامل أركانها ومسؤولياتها [فلن تعود] هناك حاجة للقبيلة وتختفي تدريجياً لينعدم الشعور بها حتى بين أفرادها، وتتراجع لتمارس دورها كمظلة إجتماعية.24" وعلى هذا الأساس يميل البعض إلى الإعتقاد بأن بروز القبيلة في ظروف التشظي السياسي وتعثّر تأسيس دولة القانون، من شأنه أن يساعد في تحقيق الإستقرار العام، وذلك بالنظر إلى قدرتها على وضع حد للتدهور الأخلاقي والممارسات الخاطئة التي يقوم بها أبناؤها وأبناء القبائل الأخرى، اعتماداً على الإعتبارات المتبادلة بينهم. وبالنظر إلى ما يكتظ به المشهد من تدهور خلقي وانحدار سلوكي، فإن أحداً لم يستطع أن يرصد أي مجهود من قبل القبائل لوضع حد لذلك؛ وهو ما يرجّح ، للأسف، وجهة النظر المغايرة التي ترى " أن رجال القبائل ولاؤهم الأول والأخير للقبيلة، وإن تعارض

ولاء القبيلة مع أي شيء آخر، وإن كان الإسلام، فيقدّمون القبيلة" . 25

ولذلك، وبالرغم من أن 86% من السكان يقيمون في المدن، فإنهم لا ينطلقون من رؤية جامعة، أو برنامج وطني خالص، وإنما تطغى على معظم هؤلاء النزعة القبليّة، فيتّخذون قبائلهم مرجعيّة، فلا يتبنّون إلا برامجها، ولا يسعون إلا وراء منافعها، غير مهتمّين بالمصلحة العامة، ولا بمصير الوطن.

ومن الملاحظ في الآونة الأخيرة، أن سطوة القبليّة قد تسلّلت إلى المؤسسات التي يُفترض أن تكون رسمية، أي تابعة لأجهزة الدولة وملتزمة بقواعدها. فلقد لمسنا كيف أصبحت بعض "المجالس البلدية" تتدّخل في الشأن السياسي؛ فبدل التركيز على مهمتها الأساسية في تدبير الشؤون المحلية للمناطق التي انتخبتها، وتقديم الخدمات لسكانها، أصبحت هذه المجالس تقوم بترشيح ممثلي المدن فيها في وزارت الحكومة، التي فرضت القبليّة أصلاً توزيعها على أساس المحاصصة26.

لا شكّ أن انتشار القبليّة، وبالذات في هذه الفترة الإنتقالية المفتوحة، التي استحوذت فيها القبائل على السلاح وعسكرت أبناءها، قد صبغت المرحلة بمزيد من الإنقسامات وفرض سياسة المغالبة، فأقحمت نفسها في مجال السياسة الذي تتقاطع فيه عدة عوامل متداخلة ومتشابكة، محليّة وعربيّة وأفريقيّة وإقليميّة وعالميّة، والذي لا يستقيم معه التعامل بأدوات تقليديّة قاصرة وغير متكافئة.

رابعاً: غياب النّخبة:

تمتلىء المجتمعات بأنواع من النّخب مختلفة، فهناك النّخبة السياسية، والإجتماعية والعلمية والإقتصادية، أو نخبة رجال الأعمال، كما تسمى، وهناك أيضا النخب الفنية والرياضية، وغيرها كثير في هذا العالم الذي تنكمش فيه الجغرافيا وتزدحم فيه الفضاءات.

لكن النّخبة التي تهمّنا في هذا السياق هي نخبة المثقفين والمهتمين بالشأن العام؛ تلك التي تكتسب نخبويتها من فعلها وفعاليتها، ومن القضايا التي تطرحها والمباديء التي تنطلق منها والقيم التي تجسدها. ويُشترط في هذه النخبة جانبان: أحدهما نظري، والآخر عملي:

أما الأول فيتمثل في مستوى من الثقافة والمعرفة، والإلمام ببعض المفاتيح العامة لعدد من المعارف التي لايكون المثقف مثقفاً إلا بتحصيلها؛ بالإضافة إلى التمكّن من فرع معيّن من العلوم، أو أكثر .

أما الجانب العملي فيمثّل درجة من التفاعل مع الأحداث الدائرة في بيئته، والإلمام بما يجري في المحيط المحلي والعربي والإسلامي، بل والعالمي. وأن يكون له مبدأ وموقف من القضايا يعبّر عن حيثياته شفوياً أوكتابياً؛ مدفوعاً بدرجة من الفاعلية والشعور بالمسؤولية والإلتزام، وأن يكون نشاطه منبثقاً من إيمانه بأن القيام بالواجب يسبق المطالبة بالحقوق، بل ويتجاوزها.

وإذا نظرنا إلى النّخبة الليبية في ظل الظروف العويصة والمتشابكة التي أوجدها الوضع السياسي، الذي ألمحنا إلى بعض ظواهره آنفاً، نجد أنها كانت تحت مجهر مراقبة رأس النظام نفسه، الذي تفنّن في حصر وتصنيف ومتابعة كل من فكّر، أو لم يفكّر، في الإنتماء للتيارات الفكرية والسياسية التي كانت منتشرة بين صفوف الشباب في عقد الستينيات. وما "ندوة الفكر الثوري" التي عقدت بطرابلس في مايو 1970، إلا أداة مبكرة لرصد أكبر مجموعة ممكنة من المثقفين والكتاب والأساتذة الجامعيين، وكل من هو مهتم بالشأن العام. حيث كانت عصبة صغار الملازمين من "الحكّام الجدد" تصطفّ فوق المسرح، لثلاثة أيام متتالية، تُلقي بتساؤلاتها وأطروحاتها، مستدرجةً كل من تدفعه طيبته وعفويته وحماسه إلى إلقاء بحث أو ارتجال مداخلة أو توجيه سؤال.

كانت الندوة تُبثّ على القناة الليبية اليتيمة آنذاك، وكان قلم الرقيب ورجال المخابرات يسجلون ملاحظاتهم، ويوزّعون على خرائط التصنيف الحزبي والأيديولوجي كل متكلّم. وكان من نتيجة هذه الندوة أن أُلقي القبض على العشرات ممن حضرها وتحدّث فيها، فامتلأت بعدها السجون بمئات المثقفين الذين اعتُقلوا، ووجهت إليهم مختلف التهم التي نسبت إليهم، مثل الإنتماء الحزبي، ومعاداة الثورة، ومحاربة المد القومي.. وغيره. وبهذا تمّت "التصفية" المعنوية للنّخب الليبية في وقت مبكر جداً، ليتّعظ من بقي خارج القضبان، فلا يتهوّر في قول أو فعل أو اعتقاد. ثم ما لبثت أن أُمّمت الصحافة، فأُغمدت الأقلام الشريفة وانسدّت آفاق الحراك الثقافي والإجتماعي، حتى إذا شق " الإتحاد العام لطلاب ليبيا" عصا الطّاعة وخرج عن طوق الطغاة، تشكّلت أحداث السابع من أبريل، وواجهت فئة الطلاب هجمة النظام الشرسة، فعُلّق بعضهم فوق أعواد المشانق، في الميادين العامة و ساحات الجامعة، بل وخلال شهر رمضان الحرام، حتى صار السابع من أبريل عيداً دموياً، يدقّ فيه الطاغية طبول حربه النفسية

والجسدية في أرجاء البلاد، متلذذاً بساديته.

هذه الأحداث وغيرها أجهضت كيان النخب الليبية، خاصة وقد تزامن معها تجفيف مصادر العلم والثقافة والإبداع، وآتت "الثورة الثقافية" أكلها، فتوارى المخلصون وتركوا الساحة لأدعياء الثقافة ومزوري الكلمة، وروّاد المثابات الثورية والمركز العالمي للكتاب الأخضر. وبقيت قلّة قليلة تسير على حدّ السيف، ولم ينجو من طوفان العفن إلا من رحم الله.. ثم لم تلبث أن خرجت بعد ذلك نخب أخرى، صُنعت على عين المستبد وبإشرافه، فانخرطت في جوقة السلطان تفيده وتستفيد منه، تدخل تحت عباءته وتتبنّى شعاراته ونظرياته، بل وتسخّر أقلامها وجهدها لتمجيده وتكريس ممارساته، حتى أصبحت جزءاً منه وصار دفاعها عنه دفاعاً عن نفسها، ووجودها وامتيازاتها.

وإلى جانب هذه النّخب المقيمة وُجدت نخب أخرى مهاجرة أُجبرت على البقاء خارج الوطن27، منذ أن صارت العودة إليه من باب رمي النفس إلى التهلكة. ومثل كثير غيرهم من المثقفين العرب، وجد هؤلاء أنفسهم يتمتعون بكرامتهم الإنسانية، وحريّتهم الشخصيّة والدينية، وتساويهم قانونياً في الحقوق والواجبات مع سكان البلد الأصليين، الأمر الذي لم يكن ممكناً في عالم العرب والمسلمين.

هنا تكرّر لهؤلاء ما حدث لهم داخل الوطن، ولكن بشكل آخر؛ فقد طغى السياسي في حياتهم على الثقافي، وتأجّلت المشاريع الفكرية والأكاديمية، وتخلّت الطموحات العلمية عن أولوياتها عند الكثيرين، إذ أصبحت غير ملائمة لتلك المرحلة، التي كانت تستدعي تحويل الممارسة الثقافية – التي بدت وكأنها نوع من التّرف – لحساب الهمّ السياسي.. لكن الفعاليّة السياسيّة، البديلة للثقافيّة والمتداخلة معها، ظلّت بالنسبة للنّخب المهاجرة محكومة بغياب التجربة التنظيميّة في الوطن الأم، ومحكومة أيضا بضخامة الأنا المتوارثة، بما تحمله من نزعة التحكّم والوصاية ورفض الإختلاف .

ومع العجز عن حلّ التناقضات، وعن معالجة عيوب جوهرية في الفكر والممارسة، ساد بين هؤلاء التفاؤل الساذج بالعودة " القريبة " للوطن، في رومانسية حالمة أعطت لبعض هؤلاء المثقفين رضاء معنوياً، لعلّه كان مجرد علامة على السذاجة السياسية، فلقد ازداد النظام تجبّراً عبر السنين، بينما طالت الغربة، وكلّت الجهود، وبعدت الشُّقة، وتسلّل للنّفوس كثير من اليأس. وعليه أخذ دور هذه النخب المهاجرة في التقلّص

والإنحسار، من العام إلى الخاص، ومن العمل الحثيث من أجل التأثير في واقع الوطن البعيد، إلى العمل المضني من أجل عدم التأثّر بالواقع المعيش. أو بعبارة أخرى محاولة الاستفادة من ايجابيات هذا الأخير والتحصّن ضدّ سلبياته، ولذلك حدث تحوّل من شجب الأوضاع التي آل إليها الوطن مع تركه والعيش بعيداً عنه، إلى الإستماتة في محاولة ربط جيل الأبناء الذين نشأوا في المنفى بذلك الوطن الذي لم يعرفوه!.

تلتقي النخب المقيمة و المهاجرة في خطوط قليلة، وتتقاطع في أخرى كثيرة. إذ قد تميّز المثقّف المقيم بأنه موجود في قلب الأحداث، وهو ما يمنحه – نظرياً على الأقل – فرصة للتفاعل والفعل والتأثير. لكنّ هذه الفرصة قلّما تصمد أمام المعاناة اليومية التي تُسبّبها قبضة الإستبداد، وهو ما يحول بين هذا المثقف وبين مجرّد التفكير في أي مشروع ثقافي، بل ويجعله غير قادر على الرؤية من خارج الدائرة المحكمة التي يرسمها النظام السياسي، وذلك بحصاره ومنعه حتى من المشاركة في النقاشات الفكرية والسياسية التي ظلت تملأ الإعلام الفضائي في التسعينيات، وهي سجالات ظلت مؤرّقة للمستبد. هذا بالإضافة إلى خنق أي محاولة لإنشاء أنشطة جماعية من شأنها التأسيس للمجتمع المدني الذي استُبدل بالقبيلة مبكّراً .

ويتميّز المثقف المهاجر بقدرته على رؤية القضايا خارج حدودها الضيقة، فهو يقرأ بحرية ويرصد ويحلّل، يتبنّى رأياً ثم يعدّله أو يعدِل عنه، حسب المعطيات الفكرية والواقعية.. وهو متنوّع المصادر الثقافية وأكثر حرية في التعبير واتخاذ المواقف... لكنّ ذلك كله كلن يتم فوق أرضيّة مغايرة، وفي ميدان غير الميدان الذي تتشكّل فيه القضايا وتدور فيه المعارك الحقيقية؛ ولذلك ظلّ هذا المثقف محدود التأثير في مجتمعه الأصلي البعيد ومقتلع الجذور من تربته الحقيقية .

المثقفون "العضويون" الأكثر تأثيراً – ربما - هم القلة الذين مكّنتهم ظروف خاصة وقدرة عالية، وربما مظلاّت سياسية أو قبلية، من أن يكونوا داخل الوطن وخارجه متى أرادوا. ينظرون إلى المشاكل الداخلية في ضوء المعطيات الخارجية، ويستوعبون التحوّلات الكونية من منطلقات وطنية وقومية. وهم على قلّتهم وعلى ما يتميّزون به من مرونة وحركة وقدرة على الإتصال، لا شكّ كانوا مؤهلين لتكوين حلقة وصل بين مثقفي الداخل والخارج في فترة ما، وهي الحلقة التي طالما احتاجت إلى تأسيس وتوسيع. لكنّ هذه النخب للأسف لم تنتبه يوماً إلى قيمة شبكة

العلاقات الثقافية والإجتماعية التي يحتاجها أي مشروع فكري أو برنامج نهضوي يستهدف إحداث تغيير. وهكذا تظهر الخطوط العريضة لمأزق النخب الليبية وفشلها في تكوين تيار قائم على التراكم والفعالية والمقاومة؛ ويتبيّن رضوخها لواقعها الضاغط في داخل البلاد وخارجها . ولذلك كله لم تجد انتفاضة فبراير النخبة القوية والمؤهلة التي تصطف لتقود الشباب الحائر المتحمس، المفتقد للرؤية، والمفتقر لأدوات التفكير النقدي والتمحيص الفكري.. ولذلك ظلت ساحتنا السياسة فاقدةً للشخصية الكارزماتية التي قد تنتظم حولها الرؤى، ويستقيم بها النظر والتقييم والعمل المنهجي الواضح .

وللأسف... فإنّ أغلب النخب المقيمة قد ضمرت أدواتها، وشاخت أفكارها، ومضغتها أضراس الحياة القاسية التي شحذها الإستبداد. وكثير منهم يشعرون فعلا أن القطار قد فاتهم وأن لاشيء يعوضهم شبابهم الذي داسته أحذية العسكر.. قلة منهم استعادت عنفوانها وسنّت أقلامها ولكنها عملياً لا تستطيع أن تكون في الميدان، تتصل بالشباب وتتواصل مع الناس وتستنهض الهمم. ذلك أنه تنقصهم صفات القيادة الإجتماعية، والمبادرات المتجدّدة والحماس الفكري. طبقة أخرى جديدة من الشباب ما زالت في طور التكوّن، بعد أن نجحت أسرهم في العمل على ألا يجرف أبناءها تيار التجهيل والتدجين والمسخ. والبعض الآخر ممن هو في منتصف العمر يتصدّر الآن مواقع ثقافية وأكاديمية وحقوقية وإعلامية هامة، لكن ما زالت تنقصه الإيجابية ومقومّات القيادة والقدرة على التخطيط والإنجاز. وليس غريباً أن تجد كثيراً من هؤلاء مكبلاً بالأفكار القبلية التي تحصره في حدودها الضيقة.

النخب المهاجرة عادت إلى واقع مغاير لم تعاصر تحولاته إلا نظرياً وسماعاً، ولذلك تحوّل حلمها في العودة إلى الوطن والعيش فيه وخدمته فيما تبقى من العمر، إلى ما يشبه الكابوس.. فالإنحدار الذي حدث في السلوك ومظاهر الحياة المختلفة في ليبيا كان صادماً، وكذلك كان رد فعل المجتمع الذي لم يستطع أن ينتصر على جلاده فيمحي من وجدانه تلك العبارة الآثمة التي نحتها الطاغية ليصف بها الأحرار ممن جاهروا بمعارضته ومقارعته، ألا وهي عبارة "الكلاب الضالة".. وإن كان الناس قد هذبوها قليلا لتصير "دبل شفرة"، في إشارة إلى الجنسية المزدوجة التي يحملها معظم أولئك .

أنكر الكثيرون على النخبة المهاجرة أن تعود لتنخرط في خدمة بلادها، بل وتمّ رفضهم قولاً، وفعلاً أحيانا! وحوربوا في كثير من المواقع، ومورس ضدهم التشكيك والتهميش.. وفي هذا السياق لربما أُخذ هؤلاء بجريرة القلّة ممن لهث منهم وراء المناصب وحصل عليها، وعمل على المنافسة من أجل السلطة حتى تقلّدها، وربما ارتكب تجاوزات قانونية، على المدّعين تقديم البينة عليها .

لكنّ في هذا الزمن المشوّش والظرف الإستثنائي وسيادة العناصر السلبية في ممارساتنا الثقافية والإجتماعية، أصبح من الثابت أن النخبة أو الصفوة، المقيمة والمهاجرة على السواء، إنما يعكسون الثقافة التي نشأوا عليها، والأفكار التي أسهم الإستبداد والقبلية وضياع الهوية وضبابية المستقبل في صياغتها، والتي لم يفلح العيش في الغرب الديمقراطي المتحضّر في محوها. وهو ما يثبت أن أصل أزمتنا في هذا المنعطف الخطير من تاريخنا، إنما هي ثقافية بالدرجة الأولى، وأنها متصلة بالجهاز المفاهيمي، والتركيبة الذهنية، وبالأخلاق والقيم والممارسات اليومية .

لذلك.. فإن أي مشروع نهضوي تنموي للدولة المدنية التي نتطلع إلى تأسيسها فوق أرض الوطن لن تتحقّق دون تغيير وتجديد وإعادة صيانة البنى التحتية في المجتمع.. تلك البنى التي تتشابك عروقها وينتسج نسيجها بخيوط موروثاتنا الثقافية، والتي نحتاج فيها إلى خطط مدروسة لإصلاح التعليم، ونشر التوعية، وفتح نوافذ العلم والمعرفة والإبتكار، مع الإهتمام بإعادة صياغة الشخصية الوطنية، في إطار مرجعية دينية وحضارية منفتحة على العلم والتقنية، وعلى الرقيّ الخلقي والسمو الروحي.

وفي هذا فليتنافس المتنافسون.

هوامش:

1 -انظر مصطفى محسن، "سسيولوجيا الدولة في مجتمعات العالم الثالث"، مجلة فكر ونقد، السنة الثالثة، العدد 28، أبريل 2000، ص 30-46 .

2 -مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، 1987، ص 89.

3 -برهان غليون، اغتيال العقل، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990، ص94.

4 -مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، المكتبة العصرية، بيروت، دت، ص71 .

5 -عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الإستبداد، دار الشرق العربي، بيروت- حلب، 1991، ص83 .

6 -انظر فوزية بريون، "العلاقة الخفية بين الجلاّد والضحيّة"، موقع ليبيا المستقبل، 201/4/25.

7- انظر فوزية بريون، "العلاقة الخفية بين الجلاّد والضحيّة"، موقع ليبيا المستقبل، 2013/4/25.

8 -برهان غليون، الوعي الذاتي، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، 1987، ص 135 .

9 -عبد الرحيم خميس،"في تعريف الهوية"، موقع حركة العدل والمساواة السودانية.

http://www.sudanjem.org/2009/11/%D9%81%D9%8A-%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D9%87%D9%88%D9%8A%D9%87-1/ -

10 -انظر نظر سالم الكبتي، "عبد الحميد البكوش ومشروع شخصية الوطن"، الحلقة3، موقع ليبيا المستقبل http://www.libyaakhbar.com/news/2329.html?source=true -

11 -السابق .

12 -أحدثت حكومة البكوش تغييراً في النظام التعليمي، بأن أدخلت تدريس اللغتين الإنجليزية والفرنسية بدءاً من السنة الخامسة الإبتدائية، بدلاً من تعليم الأولى في المرحلة الإعدادية والثانية في المرحلة الثانوية، كما كان في الماضي .

13 -مجلة أصدرتها حركة التغيير والإصلاح التي انشقت عن الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا، وذلك في يناير 1995، من العاصمة الأمريكية، ولم يستمر صدورها طويلاً.

14 -عبد الحميد البكوش، "الشخصية الليبية"، مجلة شؤون ليبية، - mostakbal.org/MinbarAlkottab/May2007/abdalhameed_albakkoosh030507.html http://archive.libya-al

15 -السابق.

16 -السابق .

17 -خطاب القذافي في افتتاح مجلس الجامعات العربية، بنغازي، 17-2-1990.

18 -أجرت د. آمال العبيدي دراسة في جامعة بنغازي حول الهوية في التسعينيات خلصت فيها إلى أن عينة الدراسة كانت تشعر بأنها مسلمة، أو عربية أو مغاربية، ولكن ليس ليبية. وقد مُنعت هذه الدراسة من النشر في وقتها.

19 -د. خالد عمر مادي، "القبيلة في النظام السياسي الليبي"، مجلة الجنوب الليبي، السنة الأولى، العدد الأول، ديسمبر 2015، ص 160.

20 -د. المنصف وناس، الشخصية الليبية: ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2014، ص41.

21 -السابق.

22 -د. موسى رميلة، "الطريق إلى الدولة الليبية"، ليبيا المستقبل، http://www.libya-al-mostakbal.org/news/clicked/88027 .

23 -د. فرج عبد العزيز نجم، "القبيلة في ليبيا: المأزق والمستقبل"، مجلة المنتدى الليبي، السنة الأولى، العدد الثاني، صيف 2006، ص 138.

24 -د. محمد المدني، "القبيلة تؤكد استقرار الدولة"، صحيفة الوطن الليبية، 9-1-2012.

25 -د. نجم، مرجع سابق، ص139 .

26 -د.خالد المحجوب، "خطر القبيلة على مركزية الدولة"، مدونة رؤيتي، 21 مارس، 2012.

27- انظر فوزية بريون، " في سوسيولوجيا الثقافة العربية: حول أزمة الثقافة والمثقفين العرب "، مجلة المنتدى الليبي، شتاء 2008.

العلاقة بين الإبداع والثقافة وتأثيرهما في تنمية المجتمع

امراجع السحاتي

الإبداع والثقافة وتنمية المجتمع هي مصطلحات مرتبطة ببعضها البعض وقد ساهمت في رقي وتحضر وتقدم الكثير من الدول عندما تم الاهتمام بها مثل الكثير من دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان وكوريا الجنوبية وغيرها، وفي المقابل ساهم عدم الاهتمام بها وإهمالها في تخلف الكثير من الدول كدول العالم الثالث التي من بينها ليبيا. وطبعاً هذه المصطلحات تتعلق بالإنسان فهو الصانع لها وهو المخزن الذي يحفظها. ولكن ورغم ما ساهمت به الثقافة والإبداع في بروز دول إلى الواجهة إلا أن بروزها كان ناقصاً من بعض الجوانب المعنوية في الإبداع والثقافة حيث تفشت فهذا المجتمعات الرذيلة وانعدام بعض جوانب الأخلاق وانعدمت بعض المعاملات الإنسانية، كما تم استغلال الإبداع والثقافة في صنع أدوات للموت كالأسلحة النووية والذرية والجرثومية وغيرها من الأسلحة التي لها تدمير شامل، وهذا الجزء من تنمية المجتمع يعد سلبياً حيث انعدمت فيه الأخلاق الإنسانية، والقصد منه ليس النماء .

أولاً العلاقة بين الإبداع والثقافة

أ- مفهوم الثقافة:

الثقافة تعتبر المخزون الأدبي والعلمي المادي والمعنوي وهي تميز مجتمع عن غيره من المجتمعات الإنسانية وهي تعتبر هوية من هوية شعب أو امة ما، وهي كذلك تحوي مقومات للهوية. لقد تعددت تعريفات مفهوم الثقافة من قبل الكثير من الكتاب والمتخصصين في العلوم المختلفة فهي وفق ما عرفت في ابسط تعريف هي:- " الحذق والمهارة والإحاطة بالعلوم والفنون والآداب وبشؤون الحياة والناس .(1) "

من هذا التعريف نستطيع أن نقول أن ثقافة أي شعب وأمة هي جزء من الإبداع.

إذن من هذا التعريف يتضح بأن مقومات أو عناصر الثقافة هي الأتي-:

1- الحذق.
2- المهارة.
3- الإحاطة بالعلوم.
4- الإحاطة بالفنون.
5- الإحاطة بالآداب.
6- الإحاطة بشؤون الحياة والإنسان.

وطبعاً اغلب هذه المقومات والعناصر لا تأتي من فراغ إنما تأتي بسبب الإبداع حيث أبدعها مبدع، فالحذق تعلمها الشخص من شخص مبدع أو بواسطة آخر، وكذلك المهارة وأيضا العلوم والفنون والآداب وشؤون الحياة والناس. قد يتعلم الشخص شؤون الحياة والناس بالفطرة بدون مبدع مثل ما مر به الكثير من العلماء والأدباء في العالم الذين أبدعوا إبداعاتهم بسبب ما مروا به من تجارب شخصية في الحياة، ولكن تظل الثقافة موطن الهام الإبداع والمبدعين وفي نفس الوقت يظل الإبداع جزء من الثقافة. كما عرفها هيكل بأنها:- "هي نظرة عامة إلى الوجود والحياة والإنسان قد تتجسد في عقيدة أو تعبير فني أو مذهب فكري أو مبادئ تشريعية أو مسلك أخلاقي، وهي البناء العلوي للمجتمع الذي يتألف من الدين والفلسفة والفن والتشريع والقيم العامة السائدة في المجتمع" ويضيف إلى أن "الثقافة هي ثمرة المعايشة الحية التلقائية في اغلب الأحيان وهي التمرس بالحياة، والتفاعل مع تجاربها خبراتها المختلفة، ويعتبر التعليم أحد مصادرها، وان الثقافة تعبير عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة وهي ليس تعبيراً أو انعكاساً مباشرا .(2) "

كما عرفت الثقافة بأنها "هي جملة الأحوال الاجتماعية والمنجزات الفكرية والعلمية والتقنية وأنماط التفكير والقيم السائدة .(3)"

كما عرفت الثقافة بأنها "ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية تشكل أمة أو ما في معناها بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميكيتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء ". وقيل بأنها هي:- "المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده .(4) "

من خلال ما تقدم من تعريفات الثقافة نجد أن هناك علاقة بين الثقافة والإبداع من خلال الأتي:

1- إن الثقافة هي مركب من الإبداعات.

2- الثقافة مركب من تطلعات المبدعين وانجازاتهم العلمية والأدبية.

أشير بأنه إذا كانت الثقافة كبيرة عظم شأن الأمة، أما الأمة التي لا تمتلك مقومات ثقافية كبيرة قل شأنها وصارت عبئاً على الأمم ذات الشأن الثقافي الكبير لكونها تعيش على إبداع الآخرين. كما أشير بان هيغل قد اعتقد بان تعطيل إبداع الأمة ينبئ على احتضارها وبالتالي تصبح عبئاً على الأمم الأخرى الأقوى ثقافة وإبداع. كما أشير بان برتراند راسل اعتقد أن الإبداع الدائم له تأثير ايجابي بأنماط حياة وسلوك الفرد.

كما قيل بان مواجهة التحديات الاقتصادية يستلزم الاعتماد على أساليب علمية وتكنولوجية متطورة لتوظيف الموارد الطبيعية واستثمارها جيداً. كما أشير بان استغلال الموارد الطبيعية من قبل الدولة لزيادة مواردها المالية وزيادة دخل مواطنيها ليس كافياً دون أن توفر نخب ثقافية مبدعة حيث أشير بان هناك دول تعيش حالة رفاه اقتصادي لكنها تعاني فقراً في ثقافتها الإبداعية وما تظهره من تحضر وتقدم إنما هو وهم زائف، وقد أشير بان الأمة التي تعتمد على الموارد المالية دون ثقافتها الإبداعية تتصرف بسلوك مزيف يعبر عن ثقافتها المتدنية .(5)

ب- الإبداع المفهوم:

وصفه (هارول اندرسون) بأنه عملية إنتاج تشهد كل لحظة من لحظاتها إنتاج جوهرة قيمة، وأشار إلى أنه ضرورة من ضرورة الحياة. كما أشير بأنه عبارة عن تفاعلات لعوامل عقلية وبيئية واجتماعية وشخصية، وهذه التفاعلات تنتج حلول جديدة يتم ابتكارها للمواقف العملية أو النظرية في أي مجال سواء كانت في العمل أو الحياة، وقيل بان هذه المجالات تتميز بالحداثة والأصالة والقيمة الاجتماعية المؤثرة، وهذه العملية هي التي تساعد الإنسان على الإحساس وإدراك المشكلة، وتحديد مواقع الضعف والبحث عن الحلول واختبار صحتها وإجراء تعديل على النتائج، ولها هدف هو ابتكار أفكار جديدة مفيدة، ومقبولة من المجتمع حين يتم تطبيقها. وقد أشير بان الدراسات السيكولوجية للإبداع ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر عام 1876م، وأشير بان الدراسات النفسية المبكرة للإبداع لم تكن بالدرجة نفسها من الدقة المنهجية التي تمتز بها ابتدأً من منتصف القرن العشرين، وأشير كذلك بان الدراسات الأولى كانت لموضوعات مثل الإبداع والتخيل والتفكير.(6)

قيل بان البديع هو "1- المبدع، الخالق. 2- المبدع، المحدث .(7) "

وقيل بان " البدعة. جمعها بدع.- كل ما احدث من غير أن يكون له مثال.(8) "

وقيل بان: " المبتدع، والبدع : الأمر الذي يكون أولاً والذي بلغ الغاية في كل شيء وذلك إذا كان عالماً أو شجاعاً أو شريفاً، وجمعه إبداع وبدع .(9) "

وأشير بأن الإبداع وصف طرق التعامل مع الأمور المألوفة بطرق غير مألوفة، وبأنه يدخل في ذلك النطاق دمج الأفكار والطرق القديمة بعد تمريرها على المخيلة للخروج بنتيجة جديدة. وقيل بان الإبداع قد يكون من فرد أو من جماعة كما قيل بان الإبداع هو " القدرة على الإتيان بأمر جديد في مجال من مجالات العلوم أو الفنون أو الحياة بصفة عامة .(10) "

كما عرف الإبداع كذلك بأنه "هو الإتيان بجديد أو إعادة تقديم القديم بصورة جديدة أو غريبة"، كما عرف بأنه "التعامل مع الأشياء المألوفة بطريقة غير مألوفة"، وكذلك عرف بأنه هو "القدرة على تكوين وإنشاء شيء جديد، أو دمج الآراء القديمة أو الجديدة في صورة جديدة، أو استعمال الخيال لتطوير وتكييف الآراء حتى تشبع الحاجيات بطريقة جديدة أو عمل شيء جديد ملموس أو غير ملموس بطريقة أو أخرى"، وكذلك عرف بأنه "المبادرة التي يبديها الشخص بقدرته على الانشقاق من التسلسل العادي في التفكير إلى مخالفة كلية .(11) "

إذن الإبداع من المزايا التي امتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات، وقد ساهم المبدعون في شتى العلوم كما ساهموا بتطور وتقدم الإنسانية فمن إبداعهم في القدم تعرفوا على الكون والطبيعة وتحسسوا طبيعتها ومعرفة فصول السنة، واكتشافهم ومعرفتهم إشعال النار، واحتمائهم في الكهوف، وبنائهم للخيام، وبعد ذلك بنائهم المنازل والقصور، واكتشافهم للحديد، ومعرفتهم بالأعشاب الضارة والنافعة إلى تطورهم في المواصلات والاتصالات وجعلهم العالم قرية صغيرة.

الإبداع قد يكون فطرياً يستلهمه المبدع من الطبيعة، نتيجة تراكمات وظروف اجتماعية وحياتية عاشها المبدع تخمرت في فكره، فأخرجت منه إبداعات حسب ميول المبدع إضافة إلى نيله تعليم بسيط، ونتيجة ثقافة واسعة سواء كانت فطرية من البيئة أو من خلال اطلاعه على الكثير من العلوم مثل ما ظهر به بعض من النوابغ لم ينالوا تعليماً متقدماً يؤهلهم على الإبداع في مجال الأدب والعلم، أو قد يكون نتيجة تعليم عالي تقليدي وثقافة من خلال تعلم عدة علوم والإحاطة بها وإتباع خطوات إعداد البحوث العلمية

وفق منهجية علمية مثل ما يتم انجازه من اكتشافات ودراسات من الأكاديميين في مراكز الأبحاث والدراسات والمؤسسات العلمية الأكاديمية.

من خلال ما تقدم نجد أن هناك علاقة بين الإبداع والثقافة وهي علاقة تتحرك في مسار دائري باستمرار ولكون الثقافة تعتبر المخزون الأدبي والعلمي المادي والمعنوي والتي عادة تكون نتيجة إبداع مبدع، ولكون الثقافة هي الحذق والمهارة والإحاطة بالعلوم والفنون والآداب وبشؤون الحياة والناس فإنها تساهم في ظهور الإبداع وبالمقابل الإبداع هو نتيجة إلمام المبدع بما شكل وصار ثقافة من أشياء ومعاملات الآخرين في الفنون والعلوم والآداب فاطلع المبدع على الثقافة يغذي مخيلته ويزيد من استلهامه الذي يخرج الإبداع، وكذلك تعتبر إبداعات المبدع هي جزء ما يخزن من ثقافة.

الإبداع قد يكون نافعاً للبشرية وقد يكون ضاراً ومدمراً لها والتاريخ الإنساني يذكر ذلك، ولازال يخبر به الإعلام في كل مكان من العالم وكذلك هو حال الثقافة.

إن الإبداع يجب أن يكون من اجل خدمة المجتمع ؛ ولهذا أشار البعض بأنه يجب أن يقوم على التقويم والتهذيب، قامت الكثير من الدول على تشجيع موطنيها على الإبداع في كافة المجالات حيث تم رصد الكثير من الأموال من اجل تسهيل مهمة المبدعين وحماية حقوق المبدعين والمخترعين المادية والمعنوية، وقامت بإقامة مؤسسات ومراكز علمية تحت تصرف المبدعين، ووفرت لهم كافة الأشياء التي يحتاجونها لانجاز أعمالهم الإبداعية، وفي المقابل هناك دول لم تقدم أي مساعدات للمبدعين والباحثين في كافة المجالات مثل دول العالم الثالث والتي من بينها ليبيا التي لم تهتم بالباحثين والمبدعين مما سببت في هجرة الكثير من العقول المبدعة وتوقف بعضها، وحتى ولو كان هناك تشجيع ضئيل فانه يكون من نصيب أللإبداع وللمهرجين والمتحذلقين. رغم القرارات والقوانين التي تتباهى بها الأنظمة في الكثير من الدول النامية والتي منها ليبيا بأنها تقوم بتشجيع البحث العلمي والابتكار والاختراع إلا أن ذلك يأتي من منظور تزيني للنظام القائم أمام الرأي العام المحلي والإقليمي والدولي. لقد اعتبر الكثير بان المشاركة الحرة في الحياة الثقافية للمجتمع له القدرة على تطور وتقدم المجتمع وأشير بان ذلك لا يتم إلا بوجود الحرية والعدل لضمان حماية الحقوق كحق اكتساب مقومات الحياة الثقافية العصرية، وحق التعرف على الأشكال العلمية والعملية الحديثة والتكنولوجيا المعاصرة، والحق

في ممارسة النشاطات الإنتاجية مباشرة مثل التجارة، وأيضا التشجيع على الإبداع في كافة المجالات.

من خلال ما تقدم لوحظ أن أهم المصادر التي تساهم في ظهور الإبداع الأتي:-

1- التجارب الشخصية: من خلال التراكمات السابقة للمبدع والحياة الشخصية للمبدع .

2- البحث العلمي: يتم من خلال خطوات البحث العلمي وفق مناهج معينة وحسب الدراسة أو البحث سواء كان في المجال الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي أو الأدبي أو العلمي أو البيئي وغيرها من الدراسات الإبداعية البارزة، وعادة البحث العلمي في الكثير من الدول يتم وفق شروط معينة سواء في مؤهلات الباحث أو في الخطوات السليمة في البحث أو الدراسة، ويتم البحث العلمي ميدانياً من خلال تتبع شرائح معينة مقصودة بالبحث والدراسة أو دراسة ظواهر مختلفة بوسائل مختلفة كالمقابلة والاستبيان والملاحظة وغيرها أو غير ميدانياً سواء كانت من الكتب أو الدوريات أو الوثائق أو الشبكة الدولية للمعلومات " انترنت " أو من خلال التجارب العلمية في المعامل والمختبرات.

3- الثقافة: تعتبر الثقافة هي الأخرى مصدر من مصادر ظهور الإبداع وهي الأهم.

ليس كل إبداع يمكن أن يصلح لتنمية المجتمع ويخدم البشرية حيث هناك إبداعات غير جيدة لا أخلاقية، لا تقبلها الإنسانية وهي لا تساهم في تنمية المجتمعات بل أن اغلبها قاتل للمجتمعات ومدمر لها. فعلى سبيل المثال فقد رصد تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لعام 1998م ظاهرة لعملية تنموية كانت سبباً في تأثير سلبي على مجتمع من المجتمعات حيث أشار التقرير إلى ظاهرة إنتاج الجمبري في بعض البلدان وما ترتب من ضرر بيئي وفقد التنوع البيولوجي بسبب فاعلية الاستثمارات الرأسمالية المتنقلة والتي تسببت في التلوث البيئي وقد أشير بان اتجاه بعض الدول إلى إنتاج الجمبري لغرض التصدير في التسعينات من القرن العشرين زاد من إنتاجها من الجمبري إلى 1277000 طن، وهذا الإنتاج كانت له آثار على البيئة إضافة إلى الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فلقد تسبب إنتاج الجمبري في تايلاند مثلاً في فقدان أراضي زراعية وفقدان أشجار كثيرة حيث أشير بان مزارع الجمبري هذه تتطلب ضخ كميات من مياه البحر المالحة إلى أحواض

يابسة إضافة إلى استخراج مياه جوفية عذبة لغرض التحكم في الملوحة وأيضا تطلب استنزاف أشجار المنغروف التي فقدت مساحة تغطي 200000 هكتار، كما أن تسرب المياه المالحة للمزارع النباتية أدى إلى تدمير الكثير من المزارع، كما حدث خلل في الحياة البحرية اثر على طبقة فقيرة من الناس كانت تعتمد على الزراعة وصيد الأسماك.(12)

من هذا المنطق نستطيع أن نقول بان الإبداع قد يكون صالح للبشرية وقد لا يكون صالح للبشرية. وعلى ضوء ذلك ظهرت منظمات ونخب تنادي بالحد من انجاز بعض الإبداعات كالحد من التسابق في التسلح والسباق في برنامج حرب النجوم والتسابق في اختراع وتطوير الأسلحة الكيماوية والجرثومية، وكذلك الحد من تلوث البيئة وطبقة الأوزون حيث برز الكثير من الرافضين للإبداعات التي تضر بالبيئة والكائنات التي تعيش فيها من أولئك الرافضين على سبيل المثال حركات الخضر (حركات أنصار البيئة) التي تدافع عن البيئة، كما ظهرت أصوات تنادي بمنع الأسلحة النووية والذرية فظهرت مؤتمرات محلية وإقليمية ودولية في هذا المجال وذلك للحد من الإبداعات الضارة التي تتمثل في أسلحة الدمار الشامل وغيرها من الإبداعات التي لا تخدم البشرية بل تدمره، وقد توجت الجهود المبذولة من أنصار البيئة ببروتوكول مونتريال الذي اعتمد سنة 1987م، والذي طلب من الدول الموقعة على البروتوكول، وكان عددها حينها 165 دولة بان تحد من استخدام المواد الكيماوية التي تستنزف طبقة الأوزون، كما ظهرت اتفاقيات للحد من الأسلحة والتسابق على التسلح وغيرها من الاتفاقيات والمعاهدات.

هناك الكثير من المعوقات التي تعيق المبدع والإبداع مثل عدم توفير مراكز ومعامل ومختبرات للبحوث والدراسات وما يلزمها للمساهمة في عمل الباحثين والمبدعين حسب تخصصاتهم، وعدم دعم الباحثين والمبدعين مادياً ومعنوياً.

ثانياً الإبداع والثقافة وتأثيرهما في تنمية المجتمع

أ- التعريف بمفهوم تنمية المجتمع:

1- مفهوم التنمية:

للتنمية أهداف تسعى لتحقيقها منها تحقيق أسلوب حياة جيدة لأفراد المجتمع، ونقل المجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم والرفاه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري والثقافي والبيئي، وتمكين الأفراد والجماعات المختلفة من التأثير الايجابي وذلك من خلال إكسابهم مهارات متعددة

في كافة المجالات من اجل رقي وازدهار المجتمع الذي يعيشون فيه .(13)

وأشير بان من أهداف التنمية كذلك البحث أن أشياء بالإمكان تحسين بها الظروف المعيشية في الحدود والإمكانيات المتاحة.(14)

لقد أشارت الكثير من المصادر العلمية بان مفهوم التنمية هو مفهوم واسع حيث انه يشمل كافة مجالات الحياة من الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والبيئية وغيرها، وعرفه البعض بأنه " كل ما يتعلق بمساعي الدول النامية لتضييق فجوة التخلف بينها وبين دول الشمال المتقدم .(15)"

من هذا التعريف يتضح بان التنمية مساعي الدول المتخلفة لتضييق فجوة التخلف بينها وبين الدول المتقدمة ونلاحظ بان هذه التنمية تقودها حكومات ومنظمات وأشخاص من الدول النامية والمستهدف بها هي الدول النامية. إذن هذا تعريف في اعتقادي لم يصل إلى تعريف التنمية تعريفاً دقيقاً؛ لان التنمية واسعة ولا تخص الدول النامية فقط بل أن الدول المتقدمة تحتاج هي الأخرى تنمية لتواكب العصر الذي تعيش فيه وإلا أنها ستصبح متخلفة عن الدول التي تضع خطط وإستراتيجية لتنمية مجتمعها والتاريخ شاهد على ذلك، فقد كانت البرتغال من أهم الدول المتقدمة في القرون الوسطى ولكنها ألان في أسفل القائمة وكذلك الدولة العثمانية وغيرها من والإمبراطوريات التي كانت لا تغيب عنها الشمس. كما أن الكثير من الدول اعتمدت على تنميتها من قبل منظمات وجمعيات حكومية وغير حكومية من دول أخرى. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول بان التنمية هي مساعي تبذلها الدول وبعض من الفاعلين الدوليين من اجل تضييق فجوة التخلف بين الدول.

كما عرفت التنمية بأنها " هي ارتقاء المجتمع والانتقال به من الوضع الثابت إلى وضع أعلى وأفضل، وما تصل إليه من حسن لاستغلال الطاقات التي تتوفّر لديها، والموجودة والكامنة وتوظيفها للأفضل ."

وقيل بان التنمية لغةً هي " النمو وارتفاع الشيء من مكانه إلى مكان آخر "، وان التنمية اصطلاحاً هي "عبارة عن تحقيق زيادة سريعة تراكميّة ودائمة عبر فترة من الزمن في الإنتاج والخدمات نتيجة استخدام الجهود العلميّة لتنظيم الأنشطة المشتركة الحكوميّة والشعبية"، وقيل بان هذه التنمية أشكال وهي شاملة ومتكاملة، وقد عرفتها هيئة الأمم المتحدة عام 1956م بأنها هي " العمليات التي

بمقتضاها تُوجّه الجهود لكلٍّ من الأهالي والحكومة بتحسين الأحوال الاقتصاديّة والاجتماعية والثقافية في المجتمعات المحليّة؛ لمساعدتها على الاندماج في حياة الأمم والإسهام في تقدّمها بأفضل ما يمكن .(16) "

كما عرفتها الأمم المتحدة كذلك بأنها " عملية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية شاملة تستهدف التحسين المستمر لرفاهية السكان بأسرهم والأفراد جميعهم على أساس مشاركتهم، النشطة والحرة والهادفة في التنمية وفي التوزيع العادل للفوائد الناجمة عنها .(17)" ..

هنا نجد أن الأمم المتحدة تتوصل إلى تعريف شبه مناسب.

وأشير بان التنمية في قواميس اللغة العربية، المختلفة هي: النماء، والزيادة والإكثار، وهي كلمات في نظر علماء اللغة تعبر عن نفسها بنفسها، ولا تحتاج إلى شرح أو تفسير. وأصل الكلمة من نمو والتي يعرفها مختار القاموس بالقول:- "نمو : نما، ينمو، نموا : زاد. نمى : نمى، ينْمى، نميا، ونماء : زاد. ونما الحديث : ارتفع ... .(18) "

وعن تاريخ مصطلح التنمية في الدراسات الأكاديمية قيل بأنه يرجع إلى العالم (ادم سميث) في نهاية القرن الثامن عشر، وان هذا المصطلح يعتبر من أهم المفاهيم التي طبعت في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. والتنمية أنواع فهناك التنمية السياسية، وهناك التنمية الاقتصادية، والتنمية البشرية والتي اعتبرت الإنسان محور كل عمل تنموي، وهدفها معرفة الإنسان ذاته من خلال تربية معينة لتعريف بحدوده ومكناته وتربيته ومهاراته الذاتية وتربيته على الإبداع والخلق والحرية، وقد أشير بان التنمية البشرية وحسب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي هي " توسيع الخيارات المتاحة لجميع الناس في المجتمع. "... و" حماية فرص الحياة للأجيال المقبلة... والنظم الطبيعية التي تعتمد عليها " .(19)

وكذلك هناك التنمية الثقافية وهدفها رفع مستوى الثقافة في المجتمع، ورقي الإنسان، وكذلك هناك التنمية الاقتصادية والتي يقصد منها دفع الإنتاج في الدولة بشتى صوره للرفع من المستوى المعيشي لمجموع السكان.

وهناك التنمية المستدامة والتي عرفت من قبل اللجنة العالمية للبيئة والتنمية عام 1987م بأنها " تلبية احتياجات الأجيال الحالية دون المساومة على قدرة الأجيال المقبلة على الحياة والبقاء" إذن التنمية المستدامة والتي تهدف إلى تلبية

احتياجات الحاضر دون المساس باحتياجات الأجيال القادمة.

ونظراً لأهمية التنمية للإنسان صدر قرار من الأمم المتحدة باعتبارها حق من حقوق الإنسان وفق القرار رقم 128/ 41 الصادر في 4 ديسمبر 1986 م بشأن (إعلان الحق في التنمية) حيث جاء في المادة الأولى الفقرة الأولى منه النص التالي:- " الحق في التنمية حق من حقوق الإنسان غير قابل للتصرف وبموجبه يحل لكل إنسان ولجميع الشعوب المشاركة والإسهام في تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية والتمتع بهذه التنمية التي يمكن فيها أعمال جميع حقوق الإنسان والحريات الأساسية أعمالاً تاماً .(20) "

2- مفهوم المجتمع:

المجتمع بوجه عام عرف بأنه هو " حالة خاصة لبعض الكائنات تعيش في جماعة منظمة .(21) "

وقيل بان المجتمع البشري يتميز " بأنه علاقات بين أفراد تجمعهم أمور مشتركة وعلاقات دائمة ومنظمة وفي الغالب ذات مؤسسات ومكفولة بضمانات وجزاءات وتهدف إلى هدف واحد .(22) "

إذن يمكننا أن نعرف المجتمع البشري المقصود في هذه الدراسة بأنه حالة خاصة لمجموعة من الأفراد يعيشون في جماعة منظمة.

3- مفهوم تنمية المجتمع:

تنمية المجتمع هو مصطلح عام يطلق على ممارسات النشطاء المدنيين والمواطنين المعنيين والمهنيين أي أن تنمية المجتمع مناطا على عاتق المبدعين من المجتمع من خلال إبداعاتهم وثقافتهم وطرق توصيلهم لإبداعات غيرهم من المبدعين لشرائح المجتمع المستهدفة بالتنمية، وهذه التنمية طبعاً تهدف إلى بناء مجتمعات محلية أقوى وأكثر قدرة على المقاومة. عرف مصطلح تنمية المجتمع بأنه " الممارسات التي يقوم بها أفراد المجتمع والنشطاء المدنيون والمثقفون والمتعلّمون بالإضافة إلى المهنيين وذلك بهدف بناء مجتمعات محليّة قويّة وناجحة وقادرة على تلبية احتياجات أفرادها الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتعليميّة والثقافيّة .(23)"

كما عرفت تنمية المجتمع بأنها " عملية بناء المجتمع القوي والمتميز في العديد من النواحي والمجالات المختلفة والمتنوعة .(24) "

من هذا التعريف يتضح بان تنمية المجتمع هدفها هو بناء وتقدم ورفاهية المجتمع في جميع المجالات.

كما عرفت تنمية المجتمع بأنها هي:- "مجموعة من القيم والممارسات التي تلعب دوراً خاصاً في التغلب على الفقر والعوز، وربط أواصر المجتمع على المستوى الشعبي وتعميق الديمقراطية " (25).

هناك مواطنون نشطون يستخدمون تقنيات تنمية المجتمع من منطلق تطوعي، وهناك أيضًا تخصصات أخرى ووكالات تستخدم منهج تنمية المجتمع أو جوانب منه .(26)

وأشير بان أهمية تنمية المجتمع هو في تمكين أفراد المجتمع من التأثير الايجابي على مجتمعهم.(27)

قام العاملون في مجال تنمية المجتمع بتطوير الكثير من المهارات والمناهج للتعامل بها في المجتمعات المحلية وخاصة المجتمعات المتخلفة، وطبعاً هذه المهارات والمناهج المتطورة جاءت بتأثير الإبداع والثقافة، كما قاموا بتقديم إبداعات في طريقة تعليم وتدريب الأفراد المستهدفين بالتنمية بأقل رسمية، وكذلك قاموا بوضع خطط فيها مهارات تنظم المجتمع والعمل الجماعي فيه وكانت لتلك الجهود تأثير في رقي المجتمعات وتقدم الدول. ونتيجة لتأثير الإبداع والثقافة في توضيح مناهج ومفاهيم وخطط التنمية وتنمية المجتمع تم تأسيس الاتحاد الدولي لتنمية المجتمع في عام 1953م بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي السبعينات من القرن العشرين انتقل إلى بلجيكا، وفي عام 1998 انتقل إلى اسكتلندا. وصار مصطلح تنمية المجتمع ينتشر في معظم الدول الناطقة باللغة الانجليزية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ونيوزلندا وبريطانيا واستراليا وكندا ودول أخرى من الكومنولث، وبسبب الإبداع والثقافة ونشاط بعض مؤسسات تنمية المجتمع في بعض دول شرق أوروبا تم استخدام المصطلح في المجر ورومانيا، وقد تكللت جهود المبدعين في مجال تنمية المجتمع بتأسيس جريدة دولية تختص بتنمية المجتمع هي جريدة (تنمية المجتمع الدولية) حيث تم تأسيسها عام 1967م، وكانت المنتدى الرئيسي للبحث ونشر نظريات تنمية المجتمع. وبسبب جهود المبدعين في تنمية المجتمع كذلك نالت مناهج وأساليب تنمية المجتمع قبول وتشجيع من الأمم المتحدة والمنظمات المتفرعة منها كمنظمة الصحة العالمية، ومنظمة التعاون الاقتصادي، وكذلك المنظمات الإقليمية مثل المجلس

الأوروبي وقد اعتبرت مناهج وأساليب تنمية المجتمع عوامل مهمة للتنمية المحلية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والبيئية والسياسية .(28)

في الستينات من القرن العشرين صارت هناك منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي وهي تنظيم إقليمي تأسس عام 1961م لغرض العمل على تحقيق ودفع عملية التنمية والتجارة الحرة، وزيادة التوسع في برامج المساعدات التي تقدمها الدول المتقدمة خاصة الدول الغربية إلى الدول النامية، وهذا التنظيم حل محل منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي التي تأسست عام 1948م، وذلك من اجل توحيد جهود الدول الأوروبية المستفيدة من مشروع مارشال لإعادة إعمار أوروبا بعد الدمار الذي حل بها نتيجة الحرب العالمية الثانية فلقد تلقت الدول الأوروبية مساعدات مكثفة في إطار مشروع مارشال وصارت بعد أن استفادت من هذا المشروع العالمي تقدم مساعدات متواضعة للدول النامية لغرض تضييق فجوة التخلف بينها وبين دول الشمال المتقدم .(29)

كما جاء في ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية والتي تأسست في 25 مايو 1963م والتي تغير اسمها إلى الاتحاد الإفريقي في 9 سبتمبر 1999م في المادة الثانية ضمن الأهداف العامة للمنظمة هو العمل على تنمية القارة الأفريقية ودعم تلاحمها وتضامنها. كما تم إنشاء مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية وهو تنظيم تابع للجمعية العامة هدفه تطوير السياسات التجارية على مستوى العالم، بدا عام 1964م بمدينة جنيف بسويسرا.

هناك في العالم مؤسسات ومنظمات غير ربحية تقوم بأعمال هدفها تنمية المجتمع مثل مؤسسة بيرسكولاس والتي قامت بتوفير فرص تعليمية وتقنية واقتصادية للأفراد والمجتمعات كوسيلة من وسائل تنمية المجتمع.

في القرن التاسع عشر ذكرت المصادر بان المفكر والمبدع (ربورت اوين 1771-1851) سعى إلى إنشاء مجتمع أكثر كمالاً، كما أشير بان هناك مجموعات من الأفراد سعت هي الأخرى أن تجعل مدنها مدن فاضلة مثل حركة نيو استراليا في استرالية. كما تذكر المصادر بان مصطلح تنمية المجتمع قد بدا في الولايات المتحدة الأمريكية في فترة الستينات من القرن العشرين وذلك في التكامل والنزول عامة محل التجديد العمراني، والذي أشير بأنه يركز في العادة على مشروعات التنمية المادية على حساب مجتمعات العمال، وأشير بأنه في تلك الفترة اهتمت جمعيات خيرية مثل مؤسسة فورد، وكذلك بعض

من المسئولين الحكوميين مثل السيناتور (روبرت أف كيندي) بالمنظمات غير الربحية. كما برزت مؤسسة نرميم بيدفورد ستيفيسانت في بروكلين التي قامت بمحاولة وهي استخدام المهارات التجارية والإدارة وذلك من خلال محاولتها بالنهوض ببعض شرائح المجتمع من محدودي الدخل، بعد ذلك أشير بان تلك الجماعات صارت تعرف باسم مؤسسة تنمية المجتمع. وقد نصت بعض القوانين في الولايات المتحدة الأمريكية على دعم وتمويل مؤسسات تنمية المجتمع والمنظمات غير الربحية الأخرى حسب المتوفر والمتاحة مثل قانون تنمية المجتمع والإسكان .(30)

وطبعاً هذا التأثير يأتي من خلال جملة من الخطط والطرق التدريبية والتعليمية حتى يتم ترسيخ الوسائل التي يتم بها بناء المجتمع الجيد من كافة الجوانب سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو بيئية ويبدأ ذلك التأثير من الأسرة إلى الشارع إلى الحي إلى المدينة إلى أن يصل الدولة.

ب- معوقات تنمية المجتمع :

قد تتعرض الدول إلى حكم شمولي يهدد تنمية المجتمع فيها ويعرقلها فمثلاً ليبيا بعد 17 فبراير2011 م، ونتيجة عدم وجود مؤسسات مجتمع مدني فعالة تعمل في جو ديمقراطي دون أن تتدخل شمولية الدولة هاجمت الكثير من المنظمات التي تهدف إلى تنمية المجتمع على المجتمع الليبي من خارج المجتمع الليبي لغرض تنمية المجتمع الليبي وكان من بين تلك المنظمات ما يرمي إلى ابعد من تنمية المجتمع الأخلاقية حيث قامت تلك المنظمات بتنمية بعض من أفراد المجتمع وفق برامج خاصة تكفل انحياز الشريحة التي تم تنميتها إلى تلك المنظمات والداعم لها مادياً ومعنوياً، حيث وجدت المجتمع الليبي بيئة خصبة لغرس أفكارها فيها والتقاط ما يمكن التقاطه من هذه البيئة وكان لها ذلك، نهيك عن جهود تلك المنظمات والتنظيمات من تنمية أجيال ليبية قبل 17 فبراير بكثير حيث كان هناك أفراد من الماركسيين، والشيوعيين، والقوميين، البعثيين، والتابعين لفتاواي وأفكار المتاجرين بالدين المدعومين من الحركات والمنظمات والدول الإلحادية وغيرهم، وهذا الانضمام ليس بسبب التعليم فالكثير من الفئات التي أنظمت إلى تلك المنظمات سراً كان تعليمها عالي وكذلك ثقافتها إلا أن السبب هو بعدم الانتماء، والوطنية للوطن والمجتمع والدين، وقلة معرفة تلك الشرائح بالوطن والوطنية ورقي الوطن، وتأثرهم السريع بأفكار

الآخرين دون تصفيتها وترشيحها. كما ظهر بعض من الكتاب والفننين والإعلاميين يقلدون غيرهم فصاروا يراوحون في أماكنهم دون أن يحاولون الإبداع والثقافة في مجال تخصصاتهم، وهذا التقليد وصل كذلك حتى في الملابس والأسماء والأكلات واللغة الأمر الذي جرد الكثير من مقومات الهوية الاجتماعية ففي ليبيا مثلاً تم إهمال الأزياء الشعبية والأسماء النابعة من الهوية الاجتماعية والأكلات والأطعمة الشعبية وصارت الهوية الاجتماعية تتشبع بمقومات مجتمعات أخرى وتلاشى الكثير من مقومات الهويات التي كانت من إبداعات مبدعين حيث تم إدخال أسماء جديدة ذات معاني سيئة لا تليق بالمجتمع، كما أدخلت مأكولات ووصفات لأكلات غير مفيدة، كما ظهرت مصطلحات لغوية من لغات أخرى لا تليق بالمجتمع كالمجتمع الليبي. ولكن رغم كل ذلك فالبقاء للأفضل فأين الشيوعيين والماركسيين بعد سقوط هرم الشيوعيين والماركسية الداعم للشيوعيين والماركسيين، وأين الذين جذبتهم أسماء براقة كالناصريين والقوميين والبعثيين وغيرهم، إن الإنسان المبدع هو الذي يميز الأشياء الحقيقية التي تخدمه وتخدم مجتمعه وليس اللهث للانضمام إلى تنظيمات لها أهداف تخدم مؤسسها والذي عادة يكون فرد أو معتقد فكري في قالب ديني.

قد تتعرض تنمية المجتمع إلى الكثير من المعوقات الأخرى والتي من أهمها الأتي:-

1- الاعتماد على عملية واحدة في التنمية كالاعتماد على التنمية السياسية أو العسكرية فقط.

2- القيام بها بشكل عشوائي دون وضع إستراتيجية وخطط وتخطيط مسبق مدروس من قبل متخصصين.

3- قلة الدعم المادي والمعنوي لعملية تنمية المجتمع.

4- ضعف الاتصالات والمواصلات وعدم مواكبة العصر وثورة المعلومات.

5- عدم الاهتمام بالبحث العلمي في مجال تنمية المجتمع.

6- الاعتماد على خطط التعليم التقليدي المعتمد على سين وجيم دون ابتكار أساليب علمية جديدة في التعلم والتعليم.

7- التركيز على الجانب المادي دون الجانب المعنوي.

8- منع الأنشطة الإبداعية التي تهدف إلى تنمية المجتمع من قبل السلطة المسيطرة على المجتمع.

9- القيود التي تقيد المبدعين والمؤسسات التي يقودونها.

10- قد تأخذ التنمية شكل عدائي مما قد تسبب الحروب بين الشعوب والأمم خاصة في التنمية الموجهة ضد المجتمعات الأخرى كالتنمية السياسية، والعسكرية، والثقافية التي تدعو التطرف والكره والتعصب ولنا في التاريخ كثير من خلال الكثير من الأيدلوجيات كما فعلت التنمية السياسية النازية والفاشية والصهيونية وغيرها، وألان كما تفعل الكثير من الدول والجماعات والنخب المتطرفة التي تدعو إلى نبذ الآخر.

من خلال النظر إلى أهم معوقات تنمية المجتمع نلاحظ بأنه يمكن أن يتم وضع علاجات مناسبة عن طريق وضع سياسات عامة من قبل الدولة يكون هدفها تنمية المجتمع ودعم القائمين عليها، وكذلك عن طريق الإبداع وعدد من المبدعين المزودين بالثقافة، والذين يقع على عاتقهم تنوير المجتمع بأفكارهم وإبداعهم ونظرياتهم من اجل القضاء على هذه المعوقات وعلاجها وذلك من خلال أحداث ثورة عامة في جميع المجالات والاتجاهات وأحداث تنمية اجتماعية وتنمية ثقافية وتنمية اقتصادية وتنمية بيئية وغيرها سواء من خلال وسائل نقل تنمية المجتمع المختلفة من مؤسسات تعليمية وإعلامية ومجتمع مدني ومساجد وغيرها أو من خلال فردي .

من خلال تتبع تاريخ تنمية المجتمع في الدول التي اعتمدت على برامج تنمية المجتمع اتضح بان تلك الدول أصبحت من الدول المتقدمة علمياً ومنضبطة سلوكياً نوعاً ما، ومنتظمة في تعاملها مع بعضها داخل مجتمعها وهنا نجد تأثير الإبداع، والثقافة التي غرست في المبدع الذي ألهمته في إبداع طرق وخطط بها تم تنمية مجتمعه، وتجد تأثيرها كذلك في تكوين مجتمع خالي من الأمراض السياسية والاقتصادية والثقافية والبيئية حيث نلاحظ المظهر الحضاري في المجتمعات التي بادرت بتنمية مجتمعاتها كالدول الأوروبية التي صار فيها الصحة جيدة والتعليم متقدم والاقتصاد جيد والسياسة بها مشاركة سياسية من كافة شرائح المجتمع التي ينطبق عليها شروط المشاركة السياسية، ولوحظ بان تلك المجتمعات صار بها استقرار سياسي وامني عكس تلك التي لم تصلها برامج تنمية المجتمع التي تلعب فيها الثقافة والإبداع دور فنجد هناك مجتمعات غير مستقرة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً مثل معظم دول العالم الثالث كدول إفريقيا والتي من بينها ليبيا وذلك بسبب عدم وجود برامج لتنمية المجتمع وعدم

تشجيع المبدعين للقيام بجهود من اجل تنمية مجتمعهم .

قامت الكثير من الدول من منع انتشار المؤسسات التي تهدف إلى تنمية المجتمع وخلقها هي مؤسسات مسيسة لكي تقوم ببعض البرامج المخطط لها ليصبح المجتمع يدور في فلك هذه السياسة كما حدث في ليبيا والكثير من الدول الشمولية التي قيدت المؤسسات التي هدفها تنمية المجتمع بقوانين وقرارات لدرجة أن مبدعين تلك المؤسسات تم نفيهم وسجنهم وحتى قتلهم والتاريخ القديم والحديث والمعاصر شاهد على ذلك.

قامت بفضل جهود المجتمعات التي وصلها تأثير الإبداع والثقافة من خلال برامج تنمية المجتمع بوضع اتفاقيات وتأسيس منظمات واتحادات لحماية المبدعين وابتكارهم وسارعت الكثير من الدول للانضمام إلى تلك المنظمات حتى تلك الدول التي لا تعير تنمية المجتمع أيا اهتمام مثل ليبيا. حيث بدأت إرهاصات عالمية لحماية الإبداع والمبدعين فظهرت اتفاقية باريس في 20 مارس عام 1883م وهي اتفاقية دولية خاصة بحماية الملكية الصناعية، كما ظهرت في التاسع من ديسمبر من عام 1886م اتفاقية برن وهي خاصة بحماية المصنفات الأدبية والفنية وهي معدلة ببرلين في 13 نوفمبر 1908، ومعدلة في برن في 20 مارس 1914، ومعدلة بروما في 2 يونيو 1928، ومعدلة في بروكسل في 26 يونيو 1948، ومعدلة في استكهولم في 14 يوليو 1967م، ومعدلة في باريس في 24 يوليو 1971، وتشمل المصنفات الأدبية والفنية كل إنتاج في المجال الأدبي والعلمي والفني أيا كانت طريقة أو شكل التعبير عنه مثل الكتب والكتيبات وغيرها من المحررات والمحاضرات والخطب والمواعظ والأعمال الأخرى التي تتسم بنفس الطبيعة والمصنفات المسرحية أو المسرحيات الموسيقية، والمصنفات التي تؤدى بحركات أو خطوات فنية والتمثيليات الإيحائية والمؤلفات الموسيقية سواء اقترنت بالألفاظ أم لم تقترن بها، والمصنفات التي يعبر عنها أسلوب مماثل للأسلوب السينمائي والمصنفات الخاصة بالرسم وبالتصوير بالخطوط أو الألوان وبالعمارة وبالنحت وبالحفر والطباعة على الحجر والمصنفات الفوتوغرافية ويقاس عليها المصنفات التي تعبر عن الأسلوب المماثل للأسلوب الفوتوغرافي والمصنفات الخاصة بالفنون التطبيقية والخرائط الجغرافية والتصميمات والرسومات التخطيطية والمصنفات المجسمة المتعلقة بالجغرافيا أو الطبوغرافيا أو العمارة أو العلوم، كما ظهرت اتحادات

منبثقة من اتفاقية باريس كاتحاد باريس وهو اتحاد يقصد به الاتحاد الدولي الذي أنشأته اتفاقية باريس، واتحاد برن الذي انبثق من اتفاقية برن وهو اتحاد دولي.(31)

كما تم إنشاء المنظمة العالمية للملكية الفكرية في استكهولم في 14 يوليو 1967 والتي انضمت إليها ليبيا عام 1976 بموجب القانون رقم 40 لسنة 1976 الصادر في 4 مايو 1976 بالموافقة على انضمام الجمهورية العربية الليبية إلى المنظمة العلمية للملكية الفكرية .(32)

أنظمت الكثير من دول العالم الثالث إلى هذه المنظمات وصدقت اتفاقياتها ليس من اجل تنمية المجتمع وحماية المبدعين وإنتاجهم إنما التظاهر بأنها تسير وفق السياسات الدولية في مكافحة التخلف والدليل على ذلك عدم تطبيقها اغلب ما تهدف إليه تلك المنظمات خاصة في النواحي السياسية والاقتصادية.

إذن ومما تقدم نستطيع أن نقول بان الإبداع في المجال العلمي والأدبي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وغيرها من المجالات والتي تشكل الثقافة والتي كانت الثقافة أيضا احد عوامل إخراجه من المبدع وبمعنى أوسع الإبداع في كافة مجالات الحياة التي تفيد الإنسان وتساهم في بناء ثقافة واسعة من هذه الإبداعات، وعن طريق هذه الإبداعات والثقافة المتكونة منها يتم تنمية الأفراد والجماعات المختلفة المستهدفة بالتنمية في كافة المجالات سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو بيئية وغيرها وبالتالي تكون مهمة الثقافة والإبداع خلق مشاريع وخطط وأفكار لتنمية المجتمع وطبعاً هذا يتطلب وسائل وأدوات لنقلها لأفراد المجتمع حيث يتم ذلك عن طريق كوادر مدربة ومرسخ فيها هذه المشاريع والخطط والأفكار، وأيضاً من خلال النخب المتميزة التي تساعدها وسائل أخرى كالمؤسسات التعليمية والإعلامية ومؤسسات المجتمع المدني والمساجد.

وهنا يرد تساؤل يقول :- كيف يتم تنمية المجتمع؟.

الإجابة على هذا التساؤل تقول :- عن طريق برامج تنموية تكون على عاتق عدد من المتخصصين وعدد من المؤسسات المتخصصة والمنظمات الحكومية وغير الحكومية محلية وإقليمية ودولية، محلياً كالمؤسسات التعليمية والإعلامية ومؤسسات المجتمع المدني والمساجد والنخب المتميزة، وإقليمياً ودولياً عن طريق المنظمات ذات الاختصاص بالتنمية مثل المنظمات المتخصصة

بالتنمية المتفرعة من منظمة الأمم المتحدة والاتحاد الإفريقي والاتحاد الأوروبي.

وهنا يرد تساؤل يقول:- ما هي المؤسسات والمنظمات الأفضل في عملية تنمية المجتمع ؟

الإجابة تقول:- حقيقة عملية تنمية المجتمع تحتاج إلى جهود معنوية ومادية كبيرة لكي يتم تنمية المجتمع اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً وبيئياً...الخ. وهذا يتطلب مساعدة إقليمية ودولية من حيث خبرة السابقين في تنمية مجتمعاتهم. ولكن ورغم كل ذلك فان تنمية المجتمع كالمجتمع الليبي يجب أن تبدأ محلياً من خلال وسائل نقل وإرسال التنمية يديرها أشخاص أكفاء من المتخصصين لتوصيل ما اكتسبوه من المبدعين وما ترسخ في أذهانهم وأفكارهم من ثقافة، من تلك الوسائل نذكر الأتي-:

1- الأسرة: وهي النواة أو القاعدة الأولى التي تنطق منها مشاريع تنمية المجتمع من خلال توجيه المستهدفين بالتنمية لكي يكونوا أعضاء فاعلين في المجتمع وطبعاً الأسرة تعمل وفق ما ترسخ في فكرها من إبداع وثقافة.

2- المؤسسات التعليمية: المؤسسات التعليمية تبدأ من دور الحضانة ورياض الأطفال إلى المدرسة إلى المعاهد والجامعة، وهي الأخرى مناط عليها عمل توجيهي وتعليمي في عملية تنمية المجتمع وفق خطط تربوية وتعليمية تهدف إلى تنمية المجتمع.

3- المؤسسات الإعلامية: من خلال الصحف والمجلات الورقية والمجلات الالكترونية ومواقع الشبكة الدولية والقنوات الفضائية.

4- مؤسسات المجتمع المدني: كالأندية الرياضية والمنظمات والجمعيات والاتحادات المختلفة المتخصصة بالتنمية البشرية والتدريب، وكل ما يساهم في توعية الأفراد اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً وبيئياً وغيره.

5- المساجد: من خلال خطب خطباء المساجد ومحاضرات وندوات المتخصصين، والتي تهدف إلى توعية الأفراد سياسياً واجتماًعيا وثقافياً واقتصادياً وبيئياً ودينياً والتي فيها الحب والانتماء للمجتمع وخدمته.

6- النخب المتميزة: من خلال محاضراتهم وندواتهم كل حسب اختصاصه سواء كان في الاجتماع أو التربية أو علم النفس أو في العلوم السياسية أو في الاقتصاد أو البيئة أو في الأدب وغيرها.

وطبعاً هذه الوسائل تحتاج إلى ناقلين للعلوم التي ابتدعها المبدعون وعادة هؤلاء من المبدعين كذلك.

من خلال ما تقدم نجد أن الإبداع والثقافة لهما تأثير ودور في تنمية المجتمع وتساعدهما في ذلك عدة وسائل كان للثقافة والإبداع دور في تأسيسها مثل المؤسسات التعليمية والإعلامية ومؤسسات المجتمع المدني وغيرها. حيث أن المبدع يجهز إبداعه على شكل فكرة أو كتاب أو آلة وغيرها، وتقوم الوسائل بمساعدة مبدع آخر بتعليمها للفرد لكي يكون فرداً صالحاً ونافعاً للمجتمع ويرقى به مجتمعه، وطبعاً الثقافة تساهم في إلهام هذا المبدع بإخراج أفكاره التي يتم ضمها بعد ذلك لتكون جزء من الثقافة، وبهذا نجد أن الثقافة والإبداع يدوران في مسار ومجرى واحد ولهما تأثير على تنمية المجتمع. ورغم التقدم في مجال تنمية المجتمع في الكثير من الدول إلا أنها لم تصل إلى مرحلة نهائية من تنمية المجتمع خاصة في الجانب المعنوي حيث تلاحظ أن هناك نقص في تنمية المجتمعات التي يعتقد البعض أنها جاوزت مرحلة التنمية وصارت في رفاه وتقدم؛ لأنه في الحقيقة أن تلك المجتمعات قد نمت بها أشياء تتعارض مع الهدف الحقيقي لتنمية المجتمعات ووظفت إبداعات وثقافات ضارة بالإنسان رغم توظيفها أخرى نافعة .

إن استغلال الإبداع والثقافة في تنمية المجتمعات في الدول المتقدم اخذ منعرج خطير حين وظفت الكثير من هذه الدول الإبداع والثقافة في صنع أسلحة دمار شامل، وهذا فيه تناقض مع التنمية التي تعني النمو والحياة، ولهذا نجد المبدع (ألفريد نوبل) مخترع الديناميت يتأسف عن هذا الاختراع الذي اختراعه عام 1867م، والذي كان يعتقد بأنه سوف يسعد البشرية وينميها إلا انه اكتشف بعد مدة بان هذا الاختراع قد سبب الكثير من الدمار والقتل للبشرية وهذا دفع (ألفريد نوبل) أن يكتب في وصيته الأخيرة معلناً فيها التبرع بثروته وريعها في جائزة سميت باسم نوبل، تقدم سنوياً على مستوى العالم لكل من حقق إبداعات باهرة في علوم الفيزياء والكيمياء والطب والأدب والتي تخدم البشرية.

ثالثاً النتائج والتوصيات

أ- النتائج :

من خلال ما تقدم من الدراسة اتضحت النتائج الأتي:-

1- إن الثقافة تعتبر احد عوامل الإبداع، والإبداع هو الآخر يعتبر احد وعوامل الثقافة.

2- إن الإبداع الذي يهدف إلى خدمة الإنسانية يخلق الثقافة، والثقافة تخلق الإنسان الوعي المستجد الذي يساهم في تقدم وحضارة المجتمع وهذا يوضح أن هناك علاقة بين الإبداع والثقافة وهي علاقة تبادلية.

3- إن الإبداع هو الذي الهم البشرية لتحسين ظروف معيشتهم ومساعدتهم في حماية أنفسهم من شتى الأخطار سواء كانت طبيعية أو غير طبيعية.

4- إن معرفة الإنسان من خلال مبدعيه ومفكريه لحركة النجوم والكسوف والخسوف وتحديد خطوط الطول والعرض للكرة الأرضية ساهم في تحديد الاتجاهات، وتحديد فصول السنة ومواعيد زرع الخضروات وغرس الأشجار، وتحديد الطرق في البر والبحر والجو.

5- إن لكل من الإبداع والثقافة تأثير في تنمية المجتمع وهذا التأثير قد يكون ايجابي وقد يكون سلبي.

6- إن عملية تنمية المجتمع تواجه عدة عراقيل خاصة في الدول الفقيرة والمتخلفة مثل ليبيا مما سبب فشلها في هذه الدول.

7- الاعتماد على خبرات وأفكار مبدعين من خارج المجتمع دون النظر إلى أفكار مبدعين المجتمع المحلي والتشجيع على الإبداع والابتكار والاكتشاف والاختراع.

8- انه ليس بالضرورة كل الإبداع صالح للبشرية وكذلك الثقافة.

9- إن معظم الدول التي يعتقد الكثير من الباحثين تجاوزت تنمية مجتمعاتها لم تتجاوزها كلياً خاصة في تنمية الجوانب المعنوية الأخلاقية.

10- إن تنمية المجتمع لبعض الدول قد تتعمق في نبذ الآخر، وتولد التعصب والكراهية.

11- عدم تحديد مصطلح واحد لتنمية المجتمع تسير عليه كل المجتمعات مما جعل الكثير من الدول تأخذ مسارات مختلفة في تنمية مجتمعاتها.

ب- التوصيات:

من خلال ما اتضح من نتائج فان الدراسة توصي بالاتي:-

1- ضرورة وضع خطط وأهداف لعملية تنمية المجتمع.

2- دعم مراكز الأبحاث والدراسات مادياً ومعنوياً.

3- ضرورة أن يتم تطبيق كل القوانين والقرارات التي تشجع على البحث العلمي بكافة أشكاله وأنواعه.

4- ضرورة أن يتم إعادة تعريف مفهوم تنمية المجتمع ليضم كافة الجوانب المادية والمعنوية والتي تخدم البشرية.

5- يتطلب من المسئولين والمهتمين بتنمية المجتمع أفراد ومؤسسات ومنظمات أن يدعو إلى اتفاقية دولية لتحديد أسس تنمية المجتمع وتوضيح مفهومها ليكون لصالح البشرية ويخدمها بدل أن يتم تنمية المجتمعات على الكراهة والعصبية مما يولد الصراعات والحروب، وكل ذلك من اجل الحد من تنمية المجتمع الهدامة.

6- تشجيع المبدعين على البحث والإبداع، وحماية حقوقهم المادية والمعنوية.

7- حماية حقوق المخترعين والمبدعين سواء كانت مادية أو معنوية.

8- إقامة مراكز ومعامل ومختبرات للدراسات والبحث العلمي .

9- إقامة المكتبات العامة وما يستلزمها من كتب وأجهزة لتساهم في الحركة الثقافية والإبداع.

الهوامش والمراجع:

1- مسعود، جبران. (1967). رائد الطلاب. ط1. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. ص67.
2- هيكل، محمد.(أغسطس 1976). " الطفل والعربي دللناه بأفواهنا ولم نرعه بأعمالنا"، مجلة الثقافة العربية، العدد 8، السنة الثالثة، مطابع الثورة للطباعة والنشر. ليبيا. ليبيا. ص 153 .
3- بركات، حليم.(1984). المجتمع العربي المعاصر، ط1. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. لبنان. ص321.
4 -جابر، محمد عابد. (ابريل 2000). العولمة والهوية الثقافية : عشر أطروحات ضمن العرب والعولمة. مركز الوحدة العربية. بيروت. لبنان. ص297، 298.
5- الربيعي، صاحب، 2011/12/22، "دور الثقافة والإبداع في تطور المجتمع ." http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=288418&r=0
6- تعريف الإبداع، تاريخ الاسترجاع 2020/4/10، https://mawdoo3.com/
7- مسعود، جبران، مرجع سابق، ص 190.
8- المرجع السابق، ص189.
9 -الزاوي، الطاهر احمد، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ص 43.
10" -مفهوم الإبداع"، تاريخ الاسترجاع 2020/4/12، https://mawdoo3.com/

11 " -إبداع "، تاريخ الاسترجاع 2020/4/11 https://ar.wikipedia.org/wiki/
12- "الإبداع ودوره في تطوير المجتمع
"http://www.alsharq.net.sa/2013/12/27/1033618
13- صاحب، جعفر عبد المهدي وشفشة، حسين البشير احمد، (2004)، الايكولوجيا إيديولوجية أنصار البيئة، ط1، المركز العلمي لدراسات، طرابلس، ليبيا، ص 15.
14" -مفاهيم عامة "، 2016/8/25، Mawoo3.com
15" -أهداف عملية تنمية المجتمع"، تاريخ الاسترجاع 2020/4/8، www.balagh.com
16 -خشيم، مصطفى عبد الله، (1996)، موسوعة علم العلاقات الدولية، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، سرت، ليبيا. ص 177.
17" -تعريف التنمية"، تاريخ الاسترجاع 2020/4/13، https://mawdoo3.com/
18 -قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم41/128 الصادر في 4 ديسمبر 1986"
19- الزاوي، الطاهر احمد، مرجع سابق، ص، 621.
20 -تقرير التنمية البشرية لعام 1996، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.
21" -إعلان الحق في التنمية"، تاريخ الاسترجاع 2020/4/12، https//: www.un.org
22- رجب بو دبوس، (1996)، القاموس سياسي، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، سرت، ليبيا، ص 152.
23- المرجع السابق، ص153.
24 " -تنمية المجتمع"، تاريخ الاسترجاع 2020/4/8، https://ar.wikipedia.org/wiki/
25 -السعو، صابين، 2016/8/25،" مفهوم تنمية المجتمع"، https://mawdoo3.com/
26 " -تعريفات منوعة "، 2015/1/20، mawdoo3.com
27 " -تنمية المجتمع "، تاريخ الاسترجاع 2020/4/8، https://ar.wikipedia.org/wiki/
28- المرجع السابق.
29- المرجع السابق.
30- خشيم، مصطفى عبد الله، مرجع سابق. ص 346.
31- الجريدة الرسمية، 14 يوليو 1976، العدد 41 السنة الرابعة عشر، مطابع وزارة العدل، طرابلس، ليبيا، ص 2111.
32- المرجع السابق، ص2112 .

علاقة المجتمع بالثقافة وبالإبداع
المجتمع والإبداع والأسئلة التي لا تتغير

فاطمة بن محمود - تونس

عندما عرّف تايلور الثقافة بأنها "الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"، جعل من الثقافة هوية المجتمع أي لا يمكن ان نفهم المجتمع ولا نتمثله إلا من خلال الثقافة التي تمثل كله وتعبر عن جوهره وتجعل منه هو هو، وقد استفاد الأتروبولوجيون كثيرا من تايلور لأن الثقافة أصبحت تعتبر من المفاهيم المركبة التي لا يمكن ان نقارب المجتمع خارجها، بذلك أصبح الانسان كائن مثقف بالضرورة. غير ان ما يلفت الانتباه ان الثقافة ليست هي نفسها في كل المجتمعات، انها تتغير وتختلف من مجتمع إلى آخر كما انها تنمو وتتجدد في المجتمع الواحد كما يمكنها أن تتكلس بمعنى انها تخضع لمتغيرات يعيشها المجتمع على مستوى طرائق التفاعل الاجتماعي داخل المجتمع نفسه أو من خلال التفاعل الخارجي مع بيئته.

بهذا المعنى تحافظ الثقافة على عمقها الإنساني الذي يجعل من الانسان كائن وعي كما يجعل منها نشاط مكتسب بفضل الخبرات التي يمتلكها الفرد والمجتمع والتي تتطور وفق تفاعله تجاه بيئته الحسية والمعنوية، بهذا المعنى نفهم ما قام به ابن خلدون عندما ميز بين ثقافة المدن وثقافة البداوة، عندما جعل من الثقافة نمط تفكير وأسلوب حياة يختلف باختلاف البيئة الاجتماعية التي ينشأ ويعيش فيها الانسان.

ما قام به ابن خلدون مهم وخطير لأنه أكد ان الثقافة هي آداب الناس في أحوالهم ومعاشهم وعندما انتصر لثقافة المدن واعتبرها أفضل من ثقافة البداوة نفهم انه جعل من الثقافة طريقة تفكير تعبر عن وعي وقدرة على استخدام العقل في

التكيّف الاجتماعي، بهذا المعنى يصبح استخدام العقل والنجاح في توظيفه لحياة ناعمة هو مقياس الثقافة لذلك نفهم لماذا اعتبر ابن خلدان ثقافة المدن أفضل من ثقافة البداوة . لأن الأدب والفنون هي من انتاجات الثقافة نفهم انها تؤثر في تطوير وعي الإنسان وتساهم في تغيير واقعه الذاتي والموضوعي بما تملكه من قدرة على الإبداع، بمعنى انه لا يمكن أبدا أن نتحدث عن أدب وفنون الا بقدر ما تمتلك من قدرة على الإدهاش وتقديم ما هو جديد ومختلف ومميز ربما لذلك ارتبطت الآداب والفنون في الغالب بحياة المدن حيث فرص التعليم أوفر وإمكانيات التواصل الإنساني .

هل كان المجتمع يحتفي بالإبداع وينتصر للثقافة دائما؟

عندما نعود للاشتقاق اللغوي للإبداع نعلم ان الابداع من البدعة والبدعة هو الخروج عن المألوف والسائد ولأن المجتمعات دائما تخضع إلى إرثها الثقافي وتلتزم بقواعدها السلوكية و تسعى للمحافظة علي موروثها القيمي فان الإبداع يأتي ليخلخل السائد ويقوض المألوف ويتمرد على الأخلاق لذلك نفهم كيف أن افلاطون قام بطرد الشعراء من مدينته الفاضلة واعتبرهم خطرا عليها وعلى نظامها وانهم سينشرون الفساد فيها ولذلك عدّهم الأكثر شرا في عصره، ولأن هذا الموقف خطير جدا ويطرد من جمهوريته المثالية من بإمكانهم إثراء الحياة فيها باختلاف رؤاهم وقدرتهم على إضفاء معنى لحياة الناس من خلال إبداعاتهم المختلفة، لذلك ربما تدارك الأمر وأعلن أن هناك نوع من الشعراء يستحق العيش في مدينته، انهم الشعراء اللذين يمثلون الالهة ويتكلمون بألسنتها ويعدّون سفراءها لدى البشر، يقولون في قصائدهم ما تريده الالهة و يساهمون في المحافظة على استقرار الوضع بالبلاد وتبرير ثقافة المجتمع.

من هنا ظهر انفصال في الادب والفنون سيتواصل إلى اليوم، انقسم المبدعون بين أنصار النظام الذين يتكلمون بهدوء ويدافعون على الاستقرار وبين أعداء النظام الذي يصرخون في وجهه ويدعون الى الثورة على الواقع ويطالبون بتغييره. كل تاريخ الادب والفنون أخذ أحد هذين المسارين، إما صوت النظام أو صراخ على النظام يكفي ان نعود الى الشعراء القدامى فنرى القبائل التي تكتشف الموهبة الشعرية لأحد أبنائها فتقيم الولائم وتدق الدفوف وتعلن الأفراح لولادة شاعر منها لأنه سيكون صوتها بين القبائل وسيفها المسلول في الغزوات يحفّز الهمم ويخلد انتصاراتها. نفس تلك القبائل مستعدة

للتبرؤ من أي شاعر ينقلب ضدها ويسعى الى خلخلة قواعدها الأخلاقية ورفض سلطتها لذلك تقوم بطرده أمام الملأ فتصبح غير ملزمة بتأمين عيشه أو ضمان سلامته من هنا نفسر ظهور الشاعر الصعلوك الذي عاش خارج القبيلة واضطر الى النهب والسرقة ليضمن قوته وأمنه.

نفهم ان العلاقة بين المجتمع والمبدع تتحول الى علاقة سياسية لذلك يسودها التوتر وتحكمها المصلحة الشخصية من جهة والمبادئ القيمية من جهة أخرى.

السؤال السياسي والمربع الدائم:

في أروبا العجوز أيضا كان المساران نفسه: الأدب رديف السلطة أو الأدب في مواجهة السلطة، لعل شاعر فرنسا الكبير فكتور هيقو ابرز من مشى في هذين المسارين معا، يذكر الجميع انه عندما قام لويس نابليون بانقلاب سياسي على خاله نابليون بونابرت سنة 1851 كان شاعر فرنسا الكبير فيكتور هيقو في التاسعة والأربعين من عمره أي في تمام نضجه الذهني والابداعي مواليا لبونبارت ورفض تماما ثورة نابليون، كان ينزل إلى الشوارع يحث الناس على المحافظة على الملكية ويصرخ بهم "أيها المواطنون لديكم ذراعان امسكوا بواحدة حقوقكم الشرعية وبالأخرى بندقية و هاجموا بونبارت"، وعندما نجحت ثورة لويس نابليون فر هيقو الى بلجيكا وتخلى عن بونبارت وبدأ يفضح دكتاتوريته بعد ان كان يسانده. أيضا لا أحد يمكن أن يسهى عن أدباء عرفوا بمناصرتهم لألمانيا النازية خاصة في الحرب العالمية الثانية أمثال غونتر غراس الذي أعلن في أحد حواراته عندما اعترف انه كان منتميا إلى طلائع هتلر وشارك في الحرب وقد مثّل ذلك صدمة لمعجبيه وقرائه لكن قيمته الأدبية رجّحت الكفة على انتمائه النازي فلم يؤثر ذلك على أهمية منجزه الإبداعي تحصل على جائزة نوبل للآداب سنة 1999، لذلك عندما أصدر الروائي الانقليزي جورج اورويل سنة 1946 روايته الشهيرة التي اختار رقم 1948 ليكون عنوانا لها اعتبرت روايته هدّامة وتم حظرها و رفعت ضدقضايا صاحبه قضايا قانونية تماما مثلما قد يحدث لأي مبدع في بلاد تخضع الى حكم كلياني لا تقبل فيه معارضة سياسية حتى وإن كانت من خلال نص أدبي، تم هذا واورويل في روايته لم يقدم أي إشارة عن بريطانيا العظمى، تحدث عن دولة فساد شامل وسماها "دولة أوقيانيا" فيها حزب أوحد يسيطر على كل مقاليد الحكم ويتزعمه شخص غامض لا يسميه اورويل و انما يشير اليه دائما ب"الأخ الأكبر."

غير بعيد عن اروبا وتحديدا في روسيا تم رفض دفن الروائي العبقري لوي تولستوي حسب تعاليم الكنسة وتم منع وضع صليب على قبره لأنه كان في رواياته يكشف زيف رجال الدين ويفضح ممارساتهم ويدين بشدة وقوفهم مع القياصرة والتخلي عن الفقراء والمظلومين .

بمعنى ان للأدب علاقة بالمجتمع وهذا ما يجعلهم في مواجهة السلطة السياسية مما يؤكد ان الادباء والمبدعين عموما لا يطلعون مثل الفطر في المجتمع بل هم نتاج واقع اجتماعي غير ان هذه العلاقة تختلف باختلاف موقع المبدع من المجتمع وكيف يفهم وظيفة الأدب هل يحافظ على الواقع ويبرره أم يرفضه ويثور عليه، لذلك يجد الأدب نفسه في مواجهة مع السلطة السياسية مضطرا ان يأخذ موقفا منها إما بمساندتها أو بالاعتراض عليها. لذلك هتف نيتشة ان "من لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمتع بما طاب له من نعيم الدنيا لن يكون كاتبا بل مزورا وخبيثا لا تقدير له ولا احترام."

الأدب، الصوت الغاضب:

بين هذين المسارين الكلاسيكيين يمكن للأدب ان يتخذ موقف المساندة للطبقات المهمشة والتي تعاني حيفا اجتماعيا وان يساهم في نشر الوعي من أجل التخلص من وضعها البائس، لذلك توجد روايات أثرت كثيرا في مجتمعاتها وساهمت في تغيير أوضاعها لا أحد ينكر ما قامت به الكاتبة الامريكية هيرت ستو مثلا التي ساهمت رواياتها الشهيرة "كوخ العم توم" في مكافحة العبودية واندلاع الحرب الاهلية الامريكية. لم يختلف الوضع كثيرا في تونس التي رفع فيها المحتجون بيت شعر لأبو القاسم الشابي "إذا الشعب يوما أراد الحياة" شعارا لربيعها العربي وكانت أول ثورة في البلدان العربية ضد نظامها الدكتاتوري الذي حكم فيها بن علي 23 سنة البلاد وانتهى الأمر بخلعه وفراره، في تونس وان اتخذ الكثير من الكتّاب والمبدعين الصمت خصوصا الذين كانوا يقتاتون من موائد النظام و يتصدرون واجهته ومتنفذين في عهده و يجمّلون دكتاتوريته نجدهم قد آثروا البقاء على الربوة كأنهم لم يصدقوا الثورة لذلك لم يكونوا مع الشعب وفي المقابل لم يملكوا الشجاعة على الدفاع عن بن علي، كان صمتهم لافتا كأنهم كانوا تحت وقع الصدمة واضطروا ان ينتظروا طويلا لينجلي الغبار وتتموقع تيارات سياسية معنية استطاعوا بعدها إعادة الانتشار والظهور ثانية وكأن شيئا لم يقع، اما من كانوا كتاب راديكاليين في توجهاتهم فقد كانت كتاباتهم منصات يدافعون بها عن ثورة الجياع وكانت فرصة لهم لتصدر

مشهد ثوري لعل من ابرز من مثل ذلك الشاعر المرحوم محمد الصغير أولاد احمد، كما ظهرت اثر ذلك روايات سعت أن يكون لها مكانا في السياق الثوري بالكتابة لها اتخذ بعضها موقف الخوف من ان تفشل الثورة و تنتهي بأكل أبنائها كما يحدث كثيرا في تاريخ الثورات.

الابداع في زمن العولمة: هل يغيّر في المجتمع؟

بحكم طبيعة المرحلة القلقة التي يعيشها العالم بعد المرحلة الكوليانية ونهاية الحرب الباردة يعيش العالم تحولات جذرية الآن التي تظهر في العولمة بما هي نظام سياسي واقتصادي من بين رهاناته انه يحتوي كل الثقافات المختلفة والمغايرة ويصهرها في اطار ثقافة الأقوى تحت عناوين جذابة مثل "الثقافة الكونية" ويجد المبدع نفسه مرة أخرى في مأزق حقيقي إما أن يبتهج لثقافة العولمة و يكون أحد أدواتها وإما انه يجاهر بعدائه للعولمة ويرفض النيوليبرالية، إذا كنا نجد فوكوياما أحد أهم المنظرين الذي تنبأ سنة 1989بنهاية التاريخ واعتبر العولمة الصيغة النهائية المثلى للعالم، لذلك وجه نقدا شديدا لرواية جورج اورويل (1084) واعتبرها لم تفهم جيدا طبيعة التحولات التي تحدث في العالم وقال فوكوياما ان التطور التكنولوجي ساهم في التخفيف من حدة الدكتاتورية وعمل على توفير الفرص المتساوية للجميع وساهم في توزيع السلط وتوفير مساحة من الحرية أكبر للأفراد وبالتالي لن تنتهي العولمة إلى دكتاتورية شمولية كما تنبأ اورويل، دفاع فوكوياما عن العولمة لم يجعله منعزلا اذ سيجد الكثير من المبدعين مساندين له يبشرون بهذه الثقافة التي تحتل الجميع، يكفي ان نذكر المبدع الكبير أدونيس الذي يعنينا جميعا بوصفه أديبا عربيا والذي هتف "ان هذا العالم سجن وان مهمة الفنان/ المبدع الأولى ان يقوض جدرانه" بذلك كان أدونيس يعتبر ان العولمة هي التي ستزيح الجدران وتجعل العالم واحدا ورحبا ومتناسقا .

الرافضون للعولمة سنجدهم يعبرون عن موقفهم من خلال نصوصهم الأدبية التي تفضح فساد الأنظمة الدكتاتورية مثلما فعل علاء الأسواني خاصة في روايته الأخيرة " جمهورية كأن" المحظورة في مصر. وربما هذا ما يجعل أدونيس نفسه في آخر مقالاته "ما تكون صورة العالم، غدا؟" يتنبأ "بضمور الظاهرة العربية وانحلالها" وان كان بذلك لا يعني انه تراجع عن موقفه الداعم للعولمة بل ربما تلك طريقته للحديث عن العرب الذين عجزوا حسب رأيه عن التأقلم مع العولمة فكان بتصريحه ذاك ينعي العرب وكأني به

يخرجهم من التاريخ أصلا. مرة أخرى نجد أنفسنا نعود الى المربع الأول في العلاقة بين المبدع والسياسي الى ما كان عليه الوضع في عهد الفلاسفة اليونان، وكل المواقف كانت وستظل إما مع التفكير والنقد أو مع المحافظة على الواقع وتبريره، وفي كل مرة نتحدث عن علاقة الأدب بالمجتمع ننتهي إلى علاقة بين الأديب والسياسي .

الرواية الواقعية الرقميه:

إذا كان السياسي له دوما نفس الموقف مع المبدع من خلال التلويح له بالعصا والجزرة فان الواقع الاجتماعي يلهم المبدع الكثير من الفرضيات و يقدم له أشكالا مختلفة و متطورة في كل مرة تجعله يتغذى منه فتزيد في اثراءه، ولأن سمة الواقع الاجتماعي الآن هو التطور التكنولوجي السريع والمتشابك والتي يمكن أن تستفيد منه الرواية الغربية، بمعنى أن هذا التطور التكنولوجي يصبح أحد مصادر الإبداع وهنا نتحدث عن إمكانية استخدام برمجيات معينة مثل توظيف تقنيات الميلتي ميديا مثل الصوت والصورة واللون واستعمالها في البنية السردية للرواية وهو ما يجعلنا نتحدث عن "الرواية الواقعية الرقمية" التي لم تفصح بعد عن وجودها الفعلي لكنها بصدده، وقد تكون ثورة في الكتابة الأدبية بحيث تعبر عن التحولات الرقمية المدهشة التي يعيشها الانسان فيكتب نصا أدبيا يعبر عن الانسان في عالم غير حقيقي وبوسائل افتراضية.. يبدو هذا بعيدا عن ذائقة المبدع العربي الذي يجد نفسه الآن بمنأى عن الدخول في مغامرة إبداعية جديدة توظف التكنولوجيا في مستواها الافتراضي في الكتابة الأدبية وهو لايزال يتخبط في أسئلة الهوية التي لم يحسم أمرها ولا يزال يطالب بالحريات وهي التي لم ينعم أبسطها.

لعل الأدب العربي يجد نفسه الآن في موقف حرج وتفرض عليه خصوصية اللحظة أن يلتزم بقضايا مجتمعه وان يحدد المكان المناسب حضاريا للمجتمع العربي ويكون حاسما في رفع اللبس بين العالمية والعولمة وأن ينتصر لعمقه الإنساني بعيدا عن التجاذبات السياسية التي قد تصنع له وجاهة آنية لا ترحمه من لعنة التاريخ إن باع موهبته لمن يدفع أكثر.

انتهى

الثقافة معقود في نواصيها التّنمية

عبدالحكيم عامر الطويل

أقولها دائماً أنا مؤمن بأن الثورة الحقيقية هي ثورة العقول، فمتى صَلُحَت العقول صلحت الأبدان والأوطان، لذا أرى بالفعل أن الثقافة – خصوصاً لمجتمعنا – لها الأولوية في أي برنامج تنموي، إذا قصدنا بها نشر تنوع المعلومات الإنسانية الصالحة والرشيدة، فنحن شعب لا تنقصه الثروة المادية ولا الموقع الاستراتيجي في قلب العالم القديم، فهو على مرمى حجر من أحد أكبر التكتلات الاقتصادية (الاتحاد الأوروبي)، ويقف بينه وبين أكبر مخزن لخامات الصناعة الدولية –أفريقيا–، ومع ذلك يئن من التخلف!

هذا لا أراه إلا نتيجة لضعف ثقافته السياسية والعسكرية والاقتصادية والإدارية والصحية التي كان من المفترض أن تساعده في فهم موقعه واستثماره من أجل رفاهية شعبه، بدلاً من ذلك يُعلّق فشله على الاستعمار والمؤامرة والتصحر إلى آخر هذه الأساطير العتيقة العقيمة، الحقيقة هي أن مجتمعنا يعجز ثقافياً حتى عن فهم حقيقة عدوه من صديقه كما لاحظنا مؤخراً، إن الفكر التقليدي الليبي يعجز حتى عن إدراك أهمية وإعادة إنتاج تجارب أجداده في العيْش وسط صحراء تَشُح فيها سُبُل العيْش الكريم، حتى أتى خبراء برنامج الأمم المتحدة للتنمية UNDPوأعادوا اكتشافها وحاولوا تعليمه إياها دون فائدة تُذكر للأسف! أما جائحة كورونا فقد كشفت مدى قوة ارتباط الفساد بالجهل في فكر مجتمعنا، إذ تسابق الكثيرون للحصول على تصريح تَجَوُّل مزور، عاجزين عن إدراك أنهم بذلك يُعطون لمرض لا علاج له التصريح لدخول أجساد زوجاتهم وأبناءهم مجاناً!

يكفي أن التجربة الحزبية قد انهارت أمام الثقافة القبلية! ففي عصر الفضائيات واستعمار الفضاء بلا أي تصانيف عرقية، في عصر التكتلات الاقتصادية القارية، أُحِس بأن ليبيا هي مجرد آخر المتاحف الطبيعية المفتوحة للثقافة القبلية، ولهذا فملايين النفط لم تتمكن من صنع مجتمع

ليبي مزدهر، وحينما نبحث تقنياً عن السبب نجده فقره المدقع في استيعاب أساسيات علوم الإدارة والسياسة والاقتصاد، لا فقره في ثرواته الطبيعية التي كثير منها غير متوفر في اليابان وسنغافورة مثلاً!

إن انشغالنا اليومي للأسف هو بما تنشغل به الكائنات الحية الأخرى (البحث عن الطعام والشراب والمأوى والتناسل ثم النوم والإخراج) ونرى الفخر والشجاعة وقمة النجاح هو في توفير هذه الحاجيات الحيوانية، فإذا أردنا ألا نكون مثلها علينا أن ننشغل بما لا تنشغل هي به! ومن هنا تكمن أهمية انشغالنا بِحُب الفنون والثقافات والعلوم، فاهتمامنا بها هو فقط ما يجعل صفة البشر حصرية لنا !

غير أن هناك بالفعل عوائق صعبة تحد من نشر هذا الأمل، ليست جغرافية ولا الوسائل المادية بقدر ما أرى أولها هو سيطرة الثقافة الدينية المتخلفة، الثقافة السلبية كما أسميها، التي تُكَفِّر الآخر لمجرد أن مفهومه الديني يختلف عن مفهومنا، كما أنها تضيق بمفهوم الثقافة والإبداع الإنساني لصالح الأسطورة والتخلف الاجتماعي والسياسي لدرجة أنها تعتبر جملة من الاختراعات والاتجاهات الإبداعية الإنسانية الهامة (كالآثار والفلسفة والفنون والدستور والقانون والانتخابات والسياحة والتربية الوطنية والسيبرانية) علوم شِرْكية أو كافرة وجب منع دخولها إلى المجتمع الإسلامي! فكيف لنا أن ننمو بمعزل عن جزء كبير من الإبداع التنموي الإنساني وتجاربه الفعلية الناجحة؟ للأسف ما لاحظته هو أن المجتمع الليبي ليس أرضية مزدهرة لها.

مع ذلك أرى أن الثقافة بإمكانها إعادة قولبة منظومة أفكارنا الهدامة، سواء كانت الفخر بالقتل أو نهب المال العام أو بمخالفة القانون بالمجمل، أو القبلية والجهوية والعنصرية والانفصالية التي لا تساعد في تنمية المجتمع بقدر ما تعمل على إنهاك قدراته وتجميد تنمية الكثير من مناطقه أو تأخير تنميتها على أقل تقدير، بالمقابل، نشر الثقافة الإنسانية الشاملة يمكنه أن يساهم في تحييد الأسطورة الدينية وتوسيع آفاق الفكر المبدع المحلي ليستوعب كل تجارب العالم بلا قيود أسطورية أو خيالية غير صحيحة، إن أحد مشاريع برنامج الأمم المتحدة للتنمية " UNDPبدائل" هو الاهتمام بالتجارب والحلول المحلية التنموية غير المكلفة والعمل على نشرها في مجتمعات أخرى يمكن أن تستفيد منها ولا تعرفها رغم توفر خاماتها، وبالإمكان استنساخ هذا المشروع لنقل ليس فقط تجارب الآخرين التقنية بل حتى آراء ووجهات نظر وحتى أخلاق

ثقافات الآخرين التي بإمكانها مساعدتنا على تجاوز محننا التنموية الكبيرة، هذا إذا تجنبنا التعامل معها بمنظور تكفيري أو استعلائي شوفيني أو محدد بتفاسير وفتاوي دينية ذات أصل بشري محض .

لكنني أظن أنه على الثقافة أن تتخلص أولاً من المتسلقين عليها وعلى رموزها ومن أشباه المثقفين كذلك، فإذا ما نجح بعد ذلك أحد المثقفين الوطنيين المتنورين في الوصول إلى أعلى مناصب رسم السياسة الثقافية للبلاد، فإنه يمكنه عندئذٍ أن يحاول جهده ليحقق هذا الطموح التاريخي عبر الاهتمام أولاً بوضع قاعدة معلومات لكل المثقفين والأدباء الوطنيين التنويريين، ثم إقحامهم في مشاريع تستهدف تجذير نوعية المطبوعات والفضائيات والراديوهات التنويرية التنموية، والاهتمام بالمراكز الثقافية وترقيتها إلى بيوت وقصور ثقافية، مع إثراء مناشطها وتعديدها لاستقطاب كل المبدعين اليافعين ورعايتهم وتشجيعهم من أجل استثمار قدراتهم الإبداعية الفطرية المتنوعة في تنمية الوطن فكرياً أولاً، فالثقافة في تقديري هي مفتاح تنمية لمجتمع مثل المجتمع الليبي الذي لم يبذل النظام السابق الجهد من أجل تثقيفه، إذ بقيت الكتب والمراكز الثقافية وحتى المناهج الدراسة موظفة بشكل قوي من أجل ليس فقط نشر فكره الأخضر والشوفينية العربية بل وفي تسفيه وحتى تشويه باقي الثقافات والتجارب الإنسانية الأخرى باعتبارها إما رجعية أو معادية للدين والمجتمع .

ما الذي يعيق مساهمة الثقافة في تنمية مجتمعنا؟

أظن أن العقبة الأكبر "عددية"، أقصد أجد أن المثقفات والمثقفين الوطنيين التنويريين – بخلاف بعض الدول المجاورة كتونس ومصر مثلاً – هم أقلية شديدة، يقفون شبه عاجزين عن نقل أفكارهم التنويرية التنموية للغالبية القبلية الجهوية الجاهلة، حتى أن هذه الغالبية تُمعن في سخريتها منهم لجهلها بأهميتهم التنموية، لدرجة أنها تُكَلِّف عادة شخصيات لا علاقة لها بالمجتمع الثقافي الليبي لتولي وزارات الثقافة منذ عهد القذافي حتى أكون منصفاً، كما نلاحظ أن موظفي هذه الوزارات ومدراء إداراتها لا علاقة لهم بالحراك الثقافي المحلي، فلا لهم نتاج ثقافي ولا نراهم يفتتحون منشط ثقافي ولا رعايته ولا حتى يحضروه دعماً وتشجيعا له، بل لاحظنا في عهد معمر أن الكثير – لا الكل بطبيعة الحال – من الفائزين بالجوائز الثقافية هم من مؤيديه أو من المتسلقين العاملين في خدمة أُطروحاته

أكثر منهم من المنتجين البنّائين للوعي التنموي الليبي.

بالطبع لا أقصد بأنه لا يوجد مثقفات ومثقفين الآن يعملون من أجل تنمية مجتمعهم الليبي، بل أنني أُخالف دائماً من يسخر من وجود وجهود هذه النخبة النادرة، لأنني أرى أن هذه الفئة موجودة، تعمل بما أتيح لها من أدوات ربما أهمها عالم النت العالمي اليوم، غير أنها تعمل بصعوبة شديدة وسط أدغال كبيرة وعرة مليئة بالسلبيات التي يحسبها منتجوها تفوق لذكائهم! لدرجة أن أغلبية أفراد هذه النخبة قد لا تراهم ولا تلمس أثرهم، مع ذلك لا يجب أن نتوقع منهم غير الاستمرار في أداء رسالتهم التنويرية، والمزيد من الصبر بعد الإيمان بأهمية دورهم في أنهم ربما الأمل الفعلي الوحيد لتنمية مجتمعنا، فقط إذا نجحوا في إزالة أغلب عقباته الذهنية البنيوية وقناعاته الضارة بمسيرة تطوره.

مجتمع قادر على إنتاج حضارة مستمرّة

د. سناء الشعلان – الأردن

ثقافة مؤمنة بحق الجميع

يمكن للثّقافة والإبداع أن يسهما كثيراً في تنمية المجتمعات والحضارات الإنسانيّة بشكل جادّ ومصيريّ وحاسم، وأحياناً أساسيّ، لكن بشرط واحد، وهو أن تكون مفردات الثّقافة منبثقة من المعاصرة والإنتاجيّة الحقيقيّة والتّقدّم العلميّ والتّعاليّ على الخرافات والمخاوف والمضاويّة المتهاوية، ومؤمنة بحقّ بقيم الحريّة والإنسانيّة والعطاء وتكافؤ الفرص، ومجسّدة لها بشكل عمليّ ومعيش مقنّنة في قوانين منصفة ومانعة لأيّ تداعي سلطويّ على الإنسان في حدود حرّياته المشروعة.

عندها يمكن أن تبني مجتمعاً قادراً على إنتاج الحضارة المستمرّة، وقادراً على معايشة الحاضر والمستقبل بأدواتهما الحقيقيّة، وفي الوقت ذاته يكون إبداعه منبثقاً من هذه العوامل والخصائص والمكوّنات، ويقوم بواجبه الطّبيعيّ والمأمول في تجسيد أفكار البشريّة المتحضّرة المستمرّة في ركب الحضارة، لتكون متحضّرة بحقّ عن تلك الأمم التي ما زالتْ تحلم بالماضويّة المتهالكة، وتنتظر "جودو" المزعوم ليحقّق لها أمنياتها، ويخرجها من مستنقع أوهامها الذي اختارته بقرارها الشّخصيّ بشكل أو بآخر، و"جودو" لا يأتي، والعالم تتقدّم، ونحن ننتظر المجهول الموعود الذي لا يدلّ سوى على حمقنا وجهلنا وضعفنا وقعود عقولنا وفهومنا بنا.

الثقافة وتكوين الإنسان!!

الثّقافة هي المعوّل عليها في تقديم المكوّن الفكريّ والوجدانيّ والعمليّ للإنسان؛ لأنها تنبثق من هذه المكوّنات في حقيقة وجودها؛ فالإنسان في النّهاية يتكوّن فكره ووجدانه وسلوكه من مكوّنه الثّقافيّ أو من مكوّناته الثّقافيّة إن كانتْ أحاديّة، أو

متعدّدة، وفي الحالات جميعها من النّتائج الطّبيعيّة في السّيرورة الحضاريّة أن تلعب الثّقافة بمحمّلاتها الاستراتيجيّة هذه دوراً في تكوين الإنسان، وتكوين هويّة فكره وشخصيّته وسلوكه بشكل فرديّ، وهو ما يكوّن الهويّة الجمعيّة للشّعب أو الأمّة فيما بعد.

من هذا المنطلق تستطيع أن نفسّر أوضاع الأمم والشّعوب، وأن نفهم طبيعيّة سلوكيّاته، وأن ندرس أفرادها، وأن نفسّر أزماتها، ومن ثمّ يمكننا أن نتوقّع مصائرها ومآلاتها من تحليل فكر تلك الأمم وثقافتها.

واقع ثقافي متهاك

المكوّن الثّقافيّ لا يعني الماضي والموروث فقط، كما يروق للحالمين والمنافقين والماضويين أن يحصروه فيه، وليتَ الأمر كذلك لهان الأمر بما يخصّ الأمّة الإسلاميّة العربيّة وحضارته التي تقوّضتْ شيئاً فشيئاً على أيدي أبنائها قبل أيدي أعدائها، لكن الثّقافة هي فعل مضارع ومتّصل كذلك، وهنا تأتي مأساويّة حضارنا؛ ففي حين يعيش البعض على أطلال الماضي، ويترنّمون بها، وهم لم يشاركوا أساساً في رفع بنائها، ينادي آخرون بهجر الحضارة العربيّة جملة وتفصيلاً، وإحلال ثقافة الآخر مكانها تماماً، ويزعق السّاسة والحكّام والمسؤولون والكذّابون والمنافقون والمنتفعون واللّصوص بأنّنا في أحسن حال، وأنّ ثقافتنا هي مفخرة المفاخر؛ ما داموا قد هيمنوا على أفكارها، واستلبوا جماليّاتها، وقاموا على خرافاتها وضعفها وانكسارها، ويهربون من تفسير حقيقة الحال الذي نحن نعيشه الآن بوصفنا أمّة تأخّرتْ كثيراً عن مدارج الحضارة، وباتتْ عالة على الإنسانيّة المتقدّمة في كثير من أصقاع الدّنيا، ومستهلكة حمقاء لا أكثر، ومجرّد بوق مزعج، وعدد سكّانيّ لا قيمة له في البشريّة في جلّ أفراده!

نحن لا نقدّم لأنفسنا الشّيء الكثير في الوقت الحاضر للأسباب التي يعرفها الجميع، وهي أسباب قد أدّت إلى تراجع العقل والمنتج الحضاريّ الإبداعيّ على الصّعد كلّها، وحوّلت الإنسان العربيّ إلى مستهلك أحمق جبان وخانع، يدين لعقليّة القطيع المسيّر دون أن يعرف الدّرب.

وعلى من ينكر هذه الحقائق، وهذا المشهد العربيّ المتهالك الذي يُسحق فيه المبدع الحقيقيّ، والمفكّر المربّي، والإنسان المنتمي الحرّ أيّما سحق، أن يقنعنا بالأدلّة والبراهين بأنّنا نعيش في واقع متقدّم متحضّر، وأن يفسّر لنا معنى الفقر والاضطهاد والسّحق والضّياع والضّعف

والخنوع والدّماء والفرقة التي نتيه فيها الآن . وأخاله لن يستطيع ذلك، خلا بعض الجعجعة الكاذبة التي اعتادها السّلطويون والكاذبون والأفّاقون ليقنعونا بأنّني في ألف خير ونحن جياع ومضيّعين وخائفين وضعاف، في حين هم يسرقون قوتنا، ويعيشون في بذخهم، ويحوّلون الأموال التي سرقوها من الأمّة إلى ملاذات آمنة لسرقاتهم الآثمة!

إن كان هذه وضع ثقافتنا في تأثيرها علينا بكلّ أسف، فكيف نتوقّع أن يكون لنا تأثير حاضر وحقيقيّ على الآخر في المدّ الثّقافيّ والحضاريّ؟! وهو من كفر بنا، وساهم بتكفيرنا بأنفسنا، ولا يأبه بنا إلاّ بمقدار ما يسرق منّا، أو بمقدار ما يقدّمه لصوصنا الكبار له من غنائم وسرقات آثمة، أو ما يدّخرونه من أموالنا في بنوكه، أو يصرفونه من طائل مال على ملاذّهم التي يجدونها موفّرة في أرضه.

الآخر لم يعد يرانا سوى ماضٍ بائد لا قيمة له، وقلّما يعترف به أساساً، ويختزلنا في حاضر متعثّر دون مستقبل سوى في المزيد من الانحطاط والانزلاق إلى الحضيض في المستويات جميعها؛ لذلك شرع ينهش فينا، ويقتسم فيما بينه أشلاءنا، ويطلق علينا شذّاذه ومجرميه ولصوصه، وينعتنا بأسوأ النّعوت، ويرصدنا على قائمة الأمم والشّعوب التي يجب حذفها من البشريّة؛ لأنّها لا تستحّق الحياة.

وسيظلّ هذا حالنا، أو قد نسير إلى الأسوأ حدّ الانقراض والإبادة الجماعيّة غير مأسوف علينا كما أتوقّع، ما لم نستيقظ من غفلتنا التي طال زمنها لقرون، ونعيش ثورة بيضاء حقيقيّة بعيدة عن الدّماء والقتل والفتك والعنصريّات والإقليميّات وتصفية الثّارات البائدة، ما نريده هو ثورة بيضاء مقدّسة قوامها القيادة الواعية النّبيلة العارفة الوطنيّة والانطلاق مع العقل والعلم والعمل والقيم العليا للإنسانيّة، وعناصرها المبدعون الخلّاقون الذي يدينون بدين العقل والتّقدّم والإبداع والإنسانيّة، ولا يرون في أوطانهم وشعوبهم لقماً سائغة لهم، أو غنائم عليهم أن يقتسموها بمنطق الأقوى اللّئيم، أو شريعة الغاب.

والمثقف هو المحرك والقائد الذي يتقدم الصفوف

عندما تعم الثقافة تتغلب لغة الحوار والتفاعل

استطلاع: مجلة الفصول الأربعة

دور الثقافة والإبداع في تنمية المجتمع؛ هو عنوان الملف الذي اقترحته مجلة الفصول الأربعة لعددها الحالي، في محاولة منها لفهم العلاقة بين (الثقافة والإبداع)، ودورهما في (تنمية المجتمع). وقد اختارت المجلة هذا الموضوع لأهميته خاصة وإن المجتمعات العربية ما بعد 2011م، عرفت الكثير من التغيرات على أكثر من مستوى، وكشف الأحداث الكثير من الخلل في التكوين الثقافي لهذه المجتمعات، وغياب دور واضح للثقافة والإبداع في خطط التنمية التي تقترحها الأجسام السياسية.

إلى أي مدى يمكن للثقافة والإبداع أن تساهم في تنمية المجتمع؟

ما هي الأدوار التي يمكن للثقافة أن تلعبها في هذا الشأن؟

كيف تقيم مساهمة الثقافة محلياً وعربياً؟

هذه ثلاثة أسئلة أعدنا فيها صياغة موضوع الملف ومحاوره، حاولنا من خلالها استطلاع أراء مجموعة من الكتاب والأدباء؛ والوقوف على قراءتهم للواقع، واستشراف رؤيتهم للمستقبل.

الحرب الأهلية أسهمت في تقليص هامش الحرية داخل البلاد

أولى الإجابات التي وصلتنا كانت للكاتب الصحفي "**رأفت بالخير**"؛ الذي ربط بين الإبداع والتقدم، وأكد أن العلاقة دام مهم للمجتمع. يقول: (لا يمكن لأي مجتمع أن يتقدم ويحدث تطورات علمية دون وجود إبداع، وهذا الابداع يجب أن يكون حراً إلى أبعد مدى ممكن ليعطي آثاره المرجوة. والثقافة هي نتيجة لعدة عوامل محيطة ولكنها متى تبنت مبادئ الحرية والعدالة كانت أكثر قدرة على دعم أي عملية للتنمية في المجتمع غير أن الثقافات تتباين في مدى الهامش الذي تمنحه للحرية، ونلاحظ أن الثقافة الغربية لازالت

متفوقة كونها تعطي هامشا أكبر للحرية على عدة مستويات).

ويضيف: (يمكن للثقافة أن تساهم في تنمية المجتمع، متى سلطت نقدها على كل الجوانب التي يتوجب الاهتمام بها وتقييمها والعمل على تطويرها، والثقافة لها دور طليعي في إعادة صياغة القيم والمفاهيم داخل المجتمع، وتقديم تعريفات جديدة لأي ظواهر اجتماعية حديثة، ولكن تظل الثقافة قاصرة إذا لم يملك المثقف الشجاعة الكافية لمواجهة كل العوائق في سعيه الدائم نحو الجمال والكمال). وعن تقييمه للواقع الثقافي محليا وعربياً، يقول "بالخير": (في ليبيا، لا يمكن إغفال الطفرة الكبيرة التي حصلت على مستوى غزارة الانتاج الثقافي بعد الثورة في عام 2011م، وساهمت بذلك في إثراء الحياة في المجتمع، مع بروز أصوات جديدة في مختلف مناحي الحياة الثقافية، بيد أن استمرار الحرب الأهلية أسهمت في تقليص هامش الحرية داخل البلاد، وأدى إلى هجرة أسماء عدة عرفت بنقدها القوي للمجتم، ومحاصرة مثقفين أخرين في ليبيا).

تخيل لو سيطرة الثقافة الحقيقية الصحيحة كيف نكون؟

القاص والروائي "**علي جمعة إسبيق**"، وهو الباحث في التراث الشعبي أيضاً، يجيب بشكل مركز ومختصر مركزاً على ما يمكن للثقافة أن تقوم به إذ (يمكنها أن تقلب كل شيء، ما نحن فيه من تخبط وتأخر نتيجة لسيطرة ثقافات خاطئة، تخيل لو سيطرة الثقافة الحقيقية الصحيحة كيف نكون) .

وعن دورها يقول: (تقويم الاعوجاج، وضع القطار على السكة، جعل الأمور تجري في أعنتها)، وعن مساهمة الثقافة محليا يضيف: (محليا ماهي إلا محاولات فردية تعطي ثمارها بقدر ما، الناس صاروا يستمعون للمثقف ويجارونه، أما مؤسساتيا فللأسف النتائج كبيرة لكنها بالسالب).

عندما تعم الثقافة تتغلب لغة الحوار والتفاعل

في ذات الاتجاه، يؤكد الكاتب الصحفي "**رزق فرج رزق**" على دون الثقافة في التنمية المجتمعية، حيث (يمكن للثقافة أن تساهم بشكل كبير في التنمية المجتمعية من خلال الاشتغال على صقل أبناء المجتمع وتوسيع مداركهم ورفع من مستواهم الفكري، لخلق اتزان في مستويات المعارف لدى المجتمع؛ مما يساعد على التكيف والتعايش السلمي)

وهو يؤكد أنه (عندما تعم الثقافة تتغلب لغة الحوار والتفاعل، ويأتي ذلك على

حساب العنف والتعصب، لهذا دور الثقافة كبير في المساهمة في التنمية، والإبداع سمو الحياة وتعزيز للروح الانسانية، وهو ركيزة مهمة في تنمية المجتمع يحرر العقلية من النمطية، ويساهم في طرح المعارف بلغة عصرية، ويحفز على الحياة المتجددة بدون الرتابة المقيتة والروتين الممل).

ويضيف (للثقافة أن ترفع من الطاقة الايجابية لأبناء المجتمع؛ وبالتالي تلعب دور التطوير والنفس الطويل في مواكبة الركود والمصاعب والمعوقات التي تواجه المجتمع. كما للثقافة القدرة على تقبل الأخر، واحترام الاختلاف، وتعزيز سعة الأفق لدى أبناء المجتمع).

وفي ختام مداخلته يقول: (في تقديري الثقافة محلياً وعربياً هي رهينة للسلطات السياسية وكذلك تهيمن عليها أموال فاسدة، لهذا عملياً لم تساهم بالشكل المطلوب في التنمية المجتمعية).

الأهمُّ شيءٍ تفعيلُ النقدِ الثقافي

يرصد الشاعر "**إبراهيم مسعود المسماري**" مدى تأثير ثنائية الثقافة والإبداع بقوله (إلى المدى الذي يمكن معه بناءُ شخصيةِ المثقفِ الحقيقيِّ الذي تنعكسُ ثقافتُهُ أسلوبًا ودورًا مسهمًا في تثقيفِ مجتمعِهِ ونشرِ أدبياتِ الثقافةِ والوعي فيه إنتاجًا وعطاءً وتوجيهًا...).

فيما يخص ما يمكن للثقافة أن تطلع به من أدوار: (تأسيسُ مشهدٍ ثقافيٍّ نقيٍّ بعيدٍ عن المجاملةِ يسهمُ فيه ذوو الشأنِ من المثقفينَ الحقيقيين، وكذلك الإعداد والتنفيذ للبرامج الثقافية المخطّطِ لها تخطيطًا صحيحًا كيفًا لا كمًّا، وكذلك تشجيعُ وتحفيزُ المثقفينَ على الإنتاجِ الحقيقي واستبعادُ العوالقِ التي تُحسبُ على المشهدِ الثقافي زورًا ومجاملةً وهي في الواقعِ إنما تسيءُ إليه بتطفُلِها، وأهمُّ شيءٍ تفعيلُ النقدِ الثقافي ومنحُه الصلاحياتِ كاملةً ليكونَ سيفًا مُسلَّطًا -بالحق- لاستبعادِ كل إنتاجٍ مغشوشٍ لا يرقى إلى صفةِ الإنتاجِ والإبداع الثقافي المعبِّر عن الوجه الحقيقي والمشرِّف للثقافةِ الليبية).

ويضيف: (عربيًّا مساهماتٌ خجولةٌ إن لم تكن معدومةً، ولا تكادُ تبينُ، وأغلبُ المشاركات خاصةً العربية اجتهاداتٌ شخصيةٌ وفرديةٌ، أما المحلية فقد يكونُ الحكمُ عليها بالتقصيرِ مجحفًا بسبب الوضع العام للبلاد الذي يصعبُ معه تنظيم وتنفيذ أنشطة ثقافية واضحة ومنتظمة اللهمّ إلا بعض المناسبات العابرة والموسمية هنا وهناك على قلتِها)

كلما زادت ثقافة مجتمع.. زاد رقيّه وتقدمه وحضارته

من قلب الأمة العربية، جاءت مشاركة الكاتب المصري "**محمد عبدالوارث رضوان**"؛ التي يؤكد على العلاقة الطردية بين الثقافة وتطور تقدم المجتمع. وهو يلخص إجابته حول سؤال دور الثقافة في المجتمع في مجموعة من النقاط:

(تساهم في نهضة المجتمع وتطوره، فكلما زادت ثقافة مجتمع زاد رقيّه وتقدمه وحضارته .

صقل المواهب الفردية؛ لأنه من خلال الثقافة، والتفكير، والبحث، والقراءة يتمكّن الإنسان من معرفة مواهبه المختلفة ويعمل على تنميتها والوصول إلى رخاء فكري وثراء علمي. *دفع المجتمع نحو التطور والتحسن من خلال العلم والقراءة .

شغل أوقات الفراغ بالقراءة والتفكير .

تقويم اعوجاج بعض الأشخاص وزيادة الطاقة الإيجابيّة.

كما أنّ الثقافة تمهّد للمثقف الطريق للوصول إلى أهدافه وأحلامه بطريقة امتلاكه الخبرات والمعرفة.

زيادة قدرة الأفراد أو المؤسسات الثقافية على اتخاذ القرارات السليمة لاطلاعهم على خبرات السابقين فيما يخص أمور الإدارة، والتخطيط، واتخاذ القرارات).

وعن تقييمه لواقع هذا الدور محليا وعربيا، يقول:

تمر المنطقة العربية منذ عقود من الزمان بظروف سياسية أثرت سلبا أو ايجابا على حركة الثقافة. فنجد الاحداثيات الآتية:

حواجز سياسية. معروف أن التقييم السياسي يسبق التقييم الإبداعي في العالم العربي، وبسهولة، يتم إسقاط مبدعين من قائمة الاهتمام العام، بسبب خياراتهم أو انتماءاتهم السياسية. وهذا يعني، التخلي عن مساحات إبداعية لأسباب غير ثقافية .

الإعلام الطاغي. بنحو متزايد، شهدت العقود القليلة الماضية، طغيان الإعلام على الثقافة. أصبح الأول أولوية مكتفية بذاتها، رغم ما يقود إليه ذلك من ضعف في المحتوى. بينما تحولت الثقافة إلى مجرد لمسة للتنوع، وهواية، تمتلك إمكانية إعداد الكفاءات اللازمة للإعلام.

التخلي عن الثقافة. لقد أدى طغيان الإعلام إلى إبعاد الثقافة من اهتمامات الإعلام. وتأثرت الصحافة الورقية، التي تخلت عن ملاحقها المختصة الناس بالأدب والثقافة). ويختم إجابته بالقول: (في المجمل تتأثر الثقافة في المجتمع

بمجريات الأحداث السياسية التي مرت وماتزال تمر بمنطقتنا العربية إضافة الي ذلك "الوباء" الذي عم العالم فتعطلت مناشط الثقافة في كل مكان جراء تأثيره الطاغي.. بما عرقل وأبطأ دوران عجلات الثقافة في المجتمع..

المثقف هو المحرك والقائد الذي يتقدم الصفوف

إلى الشرق الأقصى تأخذنا الرحلة صوب عُمان، مع الشاعر والكاتب "**عبدالرزّاق الربيعي**"؛ الذي يؤكد على أهمية دور المثقف في تقدم الصفوف وأنه صانع المنتج الثقافي؛ فيقول: (تعدّ الثقافة من أهم عناصر التطور الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانيّة، فبدون ثقافة لا يوجد تطور حضاري، ويقاس هذا التطور بالحراك الثقافي، ولذلك تحرص كلّ الدول، والمجتمعات على الثقافة باعتبارها المحرك الحضاري، والباعث لكلّ نهضة حضارية).

وأضاف: (المثقف هو المحرك والقائد الذي يتقدم الصفوف وصانع المنتج الثقافي، وعليه يقع العبء الأكبر فهو العمود الفقري الذي يستند عليه الجذع الثقافي، وبالطبع لا ينطلق من فراغ، بل يستند، بدوره، على مرجعيات منها: التراث الانساني عامة، والتراث الحضاري، والتراث الشفاهي والمادي، وإذا كان الانسان حسب بروتوبلاس "مقياس الأشياء جميعا" كما درسنا في مادّة الفلسفة، فالمثقف مقياس التطور الحضاري في كل مكان يكون به، وتنمية المجتمع أحد المهمات الملقاة على عاتق المثقف الذي ينبغي أن يكون عضويا، حسب غرامشي، لكي يندمج بحركة المجتمع، ويقوم بواجبه على أكمل وجه).

وعن دور الثقافة والإبداع أجاب: (يمكن للثقافة أن تقوم بالعديد من الأدوار التنويرية، وتوجيه الوعي بدءا من الناشئة، وتكريس القيم، وتعزيز الوعي الاجتماعي، ولو نجحنا في تنشيط الصناعات الثقافية من خلال تعزيز الأنشطة التي تدخل في مجال الاستثمار الثقافي، فأن الثقافة ستساهم في التنمية الاقتصاديّة، وقد قرأت ذات يوم تقريرا يؤكد أن القطاع الثقافي حقّق في فرنسا عام 2001م دخلا يعادل خمس أضعاف دخل قطاع السيارات!!)

ويستطرد: (من هذا يمكن أن تصبح الثقافة رافدا اقتصاديا في مرحلة نشهد فيها تدني أسعار النفط، وضعف الموارد، والعديد من الأزمات الاقتصادية المترتبة على ذلك، خصوصا أن مناطقنا غنيّة بإرثها الثقافي، والحضاري، الذي يشكّل عنصر جذب للسياح، لو أحسنّا استثماره، ولكن هذا الهدف يتطلّب منّا جهودا

مضاعفة، وعليه ينبغي علينا وضع استراتيجية طويلة المدى، تشرك بقية القطاعات الفاعلة في المجال الاقتصادي، وتطوير البنى التحتية، وقبل كلّ شيء لابدّ أن نبذل جهدا، ونسعى بكلّ الوسائل المتاحة لتغيير النظرة التي ترى في المنتوج الثقافي قيمة ترفيهية، وتكميليّة، وليست نشاطا عضويا في حركة المجتمع، وبالطبع أصحاب هذه النظرة يتجاهلون الأدوار التي تقوم بها الثقافة، والفنون في الارتقاء بالذوق، والحس الانساني).

ويختتم "الربيعي" بقوله: (رغم المعاناة الشديدة التي يشعر بها المشتغلون في هذا الجانب، إلّا أن الثقافة في مناطقنا المحكومة بظروف تجعل الكثيرين لا يضعونها في مقدمة اهتماماتهم، تسعى من خلال مؤسساتها، بكل ما تستطيع أن تكون حاضرة، في مجتمع أفراده محبّون للثقافة، والفنون، والقراءة، كما نرى في معارض الكتب، محاولة تجاوز الصعوبات التي تواجهها في مناطقنا العربية، والتي يتمثل أبرزها في ضعف الدعم الحكومي، وعدم اهتمام القطاع الخاص في الجانب الثقافي، ولا رجال الأعمال، رغم أننا في السلطنة أحسن حالا من سوانا، ويكفي أنّ جلالة السلطان "هيثم بن طارق" المعظّم قريب من نبض الحراك الثقافي، ويكفي أنّ آخر منصب شغله قبل أن يصبح سلطانا للبلاد هو وزير "التراث والثقافة" وهذا دليل على وضع اعتبار للثقافة في بلد يزخر بالأنشطة الثقافية).

ختاماً!!

هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن دور الثقافة والإبداع وأثرهما في المجتمع، ودورهما الكبير في التنمية والنهوض والرقي به، لتجاوز العثرات وسد الثغرات باتجاه مستقبلا أكثر إشراقاً، خاصة إنا كمجتمعات مازلنا نصنف كدول عالم ثالث!!!

تحليل الخطاب الشعري

نبيلة سالم الطاهر أبوبكر

باحثة ليبية- المغرب

يعد الخطاب الطريقة التي تقدم بها المادة النصية سواء أكانت شعراً أم نثراً، أدبية أم غير أدبية، لكن قد تكون هذه المادة واحدة، وما يتغير هو الخطاب في طريقة محاولته كتابتها ونظمها"1" هذا ما يجعل الخطاب موضوعاً للتحليل ومن ثم معرفة أهم روافده، وعناصره، وكيفية اشتغال مكوناته. يكاد يجمع كل المتحدثين عن الخطاب وتحليله أن ز. هاريس (1952) له الريادة في هذا المضمار من خلال بحثه الموسوم بـ"تحليل الخطاب"، إذ يعد أول باحث لساني اهتم بمفهوم الخطاب وفسره موازيًا للجملة في البحث اللساني. بينما يقدم الباحث اللساني بنفنست تعريفا للخطاب يُخضع فيه الجملة لحدود تجعلها أصغر وحدة خطابية، فكان لهذ التعريف أبلغ الأثر في الدرس الأدبي الذي يقوم على دعائم لسانية.

بما أن الشكل الأدبي له خصائصه النوعية التي لا يمكن البحث عنها إلا من خلال الخطاب، وهذا ما يمكن استدراكه من استنتاجات تودوروف لتعريفات الأدب التي سبقت تعريفه، إذ ينادي بضرورة استحضار مفهوم الخطاب الأدبي باعتبار العلاقات السائدة بين الخطابات المختلفة"2". فإن التمييز بين أنواع الخطابات صار ملزماً بتحديد هذه الأنواع وتحديد موضوعاتها. وهذه أهم مشكلة تعد رئيسية تواجه تحليل الخطاب باعتباره يستمد أدواته من مجالات دلالية وتلفظية، وهي مجالات لازالت تبحث عن الاستقرار في الفكر اللساني المعاصر، وذلك مردّاً إلى كون تحليل الخطاب يمثل نقطة التقاء بين اللسانيات والعلوم الإنسانية بحسب د.مانكينو"3."

إن كلمة "خطاب" المعاصرة، التي تستقي مشروعيتها من طبيعة تصور المادة التي تعالجها، والسياق الذي تنتج فيه؛ نجدها في جميع الثقافات الحية تتجه إلى

اكتساب صيغة كلية شاملة، تغطي المادة النصية بأكملها من منظور علمي متحرك.

فبقدر ما يتولّد في الخطاب الإبداعي من أنساق إنسانية وجمالية وما تسفر عنه علوم الإنسان من معرفة بعالمه، فإن الخطاب الأدبي والبلاغي لا مناص له من أن يقبض على أشكالها.

وإذا كان الدرس الأدبي يحدد أنواعاً للخطاب الأدبي وتحليله، فإن أبرز هذه الأنواع هي: الخطاب الروائي والخطاب الشعري بوصفهما جنسيّن يسهمان في حركة التطور البلاغي سواء عن طريق تحليل الخطاب الروائي بالحكي والسرد أو عن طريق تحليل الخطاب الشعري بضبط الإيقاع المعرفي والسردي كذلك.

ستقتصر الدراسة حول تحليل الخطاب الشعري، وأهم روافده وأقسامه: الخطابات الشعرية تنتجها سياقات ثقافية، والاهتمام بدراسة هذه السياقات داخل الخطابات، سوف يساعد على فهم كثير من إشكاليات الخطاب التي لا تزال تحيرنا، فلا يمكن فهم الاستعارة -مثلاً- من دون فهم حاجة الشاعر الثقافية إلى ممارستها داخل الخطاب، وأهميتها في الصياغة الجمالية للخطاب المكتوب تعادل أهميتها في الخطاب الشفاهي"4."

لفهم تحليل الخطاب الشعري، يجب معرفة آلية صياغته اللغوية، وعلاقة هذه الصياغة بالثقافة، وفي هذا السياق يقول عبد الفتاح يوسف في كتابه "السانيات الخطاب وأنساق الثقافة": إن الصيغ اللغوية داخل الخطاب الشعري تتأثر بثلاثة عوامل مرتبطة ببعضها وهي:

1- السياق النصي: وهو اللغة، والظواهر الفنية وبنية النص، التي استوعبت السياق الثقافي، وعبرت عنه بشكل خاص.

2- السياق الثقافي: وهو النظام الاجتماعي الذي سمح لهذا الخطاب بالظهور دون غيره من الخطابات الأخرى، مثل ظهور خطاب النقائض في العصر الأموي، وخطاب المعارضات في بداية العصر الحديث، وقصيدة النثر حديثاً.

3- تلقي الخطاب: الجمهور في الخطاب الشفاهي، والقارئ في الخطاب المكتوب"5."

بما أن المعنى داخل الخطاب الشعري يتشكل من خلال مستويات معرفية؛ فإنه يمكن القول بأن الخطاب كما هو مشكّل أو مركّب لغوي، فإنه كذلك مركّب ومؤسس معرفي، وللثقافة الجماعية دور مهم في هذا التأسيس، ومن هذا المنطلق يمكن القول: بأن كل وحدة خطابية من وحدات الخطاب الشعري، مبنية بنظام لغوي

يتأسس على سلسلة من الأفكار والمعارف على النحو التالي:

1 - الذاكرة الجماعية التي تؤطر المعنى الحياتي بأطرها الثقافية الخاصة.

2- ينظر الشاعر إلى هذه المعاني بوصفها معرفة. ومن ثم يعمد في خطابه إلى الإفادة من هذه المعارف، بإضافتها في سياق جديد يعطي لخطابه قيمة معرفية.

3- يأتي المتلقي كمستقبل لهذه المعاني ومؤولاً إياها في إطار وعيه بهذه العملية"6."

أهم الروافد التي ساهمت في بلورة خطابات الشعر العربي وتشكيلها :

إن المتأمل فيما تطرحه هذه الروافد -على المستوى الثقافي- من أفكار؛ يدرك أبعاد العلاقات التي تربط بين هذه الخطابات ومرجعيتها الثقافية والمعرفية، وهذه الروافد المرجعية انتقلت إلى الخطاب الشعري في شكل "علامات لسانية" ليعادل بها الشعراء مواقفهم من الحياة وأحداثها من حولهم، وتحديد قوام هذه الروافد وتحليلها يعد طريقاً لدراسة توضيحاً أو كشفاً لانبثاق المعاني الجديدة من المعاني التراثية، إذ يتم هذا الانبثاق عن طريق آلية معقدة تؤدي فيه ثقافة الشاعر وميوله دورا كبيراً في تحديد المعنى الجديد ومعرفة دلالته. وهذه الممارسة نسقية إلى حد كبير"7"، لأن المبدع يبحث عن قواعد تسمح بأن يكون "الأي تغير يصيب الخطابات الأخرى، أثره الواضح على خطاب آخر، ما يجعله ينشئ موضوعاً جديداً، ويخرج إلى الوجود استراتيجية جديدة تفسح المجال لعبارات ومفاهيم جديدة""8."

كتحديد لأهم الروافد الثقافية ندرج رافدَين مهمين هما: الدين، والتراث الشعري العربي. بالنسبة للدين: يعد استدعاء الرافد الديني المتعالي في الخطاب الشعري العربي، يشير إلى بُعد تداولي خاص لهذا الخطاب، لما لهذا الرافد من أثر في نفس المتلقي العربي على مر التاريخ، واشتراك هذه الخطابات مع هذا الرافد في المعنى، يعطي هذه الخطابات بالضرورة معنى متعالياً أيضاً، فاستدعاء شخصية يوسف عليه السلام في شعر محمد الشهاوي في خطابه الشعري (اللاحق) وتماثله بين يوسف صاحب الدور المعاصر وبين شخصية يوسف في المرجع القرآني المتداول، يؤكد إصرار الشاعر على تداول الشخصية في الخطاب الشعري بمعنى قريب من الذي تداولت فيه شخصية يوسف بالمرجع القرآني وبأحداث تكاد تكون متماثلة. وهذا الربط بين الشخصيتين صاحبتا الدور

القديم والمعاصر داخل الخطاب الشعري،"عمل ذو نظام تداولي يغوي القارئ لارتباطه بالمرجع ذي الدلالة المتعالية، مما يجعلنا نفهم الغنى المعرفي القائم في ممكنات التداول العلاماتي واستراتيجياته""9". يقول محمد الشهاوي"10":

يداك مفتاح الخصب

وضربة فأسك الضخمة

زلزال فجرّت قلمي ينابيعًا من الغير

وحين هتفتُ باسمك قادني الشرطي

-دون جريرة-

لغيابة الجُبّ

عساي أزيّفُ الرؤيا

ويدري السجن أنّي لم أجئه خائناً وجهك

وأني حينما قد راودَتْني لحظة الإغراء

قُدّ قميصي القروي من دبر

وقلت:

السجن ثانية- أحب إليّ مما قد دعيت

إليه

وقلت: السجن ثانية..

وثالثة..

ومليوناً..

أَحَبّ إليّ.

إن قراءة الشهاوي الفاعلة للتراث، تستند في أهميتها على الفعل القرائي الإبداعي عبر فترات متباعدة من الزمن، والذي يعتمد على إقامة علاقة إيجابية تداخلية مع التراث الديني، والمعنى في أبيات الشهاوي يكتسب قيمته الفنية والجمالية من خلال تداخله مع المعنى الذي تحمله الدالّة القرآنية، إذ يمثل المعنى العنصر الطاغي في طبيعة هذه العلاقة الإيجابية التداخلية.

إن العلاقة بين الشخصيات أو الأحداث في الخطابين الشعري والديني، لا تأخذ بعداً واحدا، بل تتعداه إلى أبعاد جوهرية ومستويات شكلية، بعضها يعتمد على ألية الاستدعاء والامتصاص بينما يعتمد الآخر على التضمين. حيث يتم بلوغ المعنى صحيحاً للقارئ عن طريق معرفة أبعاد العلاقة بين هذه الشخصيات وتماثل الأحداث، والبعد الثقافي لها. والشخصيات المعاصرة وبعدها العلاماتي المتعلق بشفراتها ورموزها. ومن هذا المنطلق نحسب المتلقي فاعلاً إيجابياً لحظة بلوغه المعنى المراد، فيسهم هو الآخر في هذه العملية الإبداعية.

أما بالنسبة للتراث الشعري العربي، فإن الشاعر وهو يتحدث إلى الحاضر من خلال الماضي فإن حديثه يتضمن تداول صيغ معينة من الشعر العربي بوصفه تراثاً بشرياً له قيمته الفنية والأدبية. وفي هذا النطاق نقرأ قول الشاعر محمد الشهاوي"11:"

للصمت طعم الموت

-قلت لصاحبي-

فأجابني:

والبوح عصفور تطارده البنادق

قلت:

يا..

من لم يمت بالشعر مات بغيره..

فاشتاط غيظاً؟ (هل رأيت البحر يرغو؟

كان أكثر فورة)

ثم انثنى- في داخلي- ليقول لي:

ما بيننا أبداً حوار.

استدعى الشاعر البيت الشعري المشهور : (من لم يمت بالسيف مات بغيره)، ولكن الخطاب الشعري (اللاحق) غير دلالة السيف ليضع مكانها الشعر كي تكون مناسبة للمعنى، على رأي أبو هلال العسكري في قوله عن الشعراء إذا أخذوا المعاني ممن تقدمهم:" أن يكسوها ألفاظًا من عندهم""12". حتى لا تعد سرقة في حقهم.

أقسام الخطاب الشعري:

بإيجاز يمكن تمييز عدة أقسام للخطاب الشعري عند تحليله وهي:

- **الخطاب المفتوح** المتمثل في: الخطاب الفردي الذي يختص بذات مفردة أياً كان شكلها أو طبيعتها. والخطاب الجمعي الموجه من مخاطب واحد إلى مجموعة مخاطبين، وتبدو فيه النبرة الخطابية العالية.

- **الخطاب المغلق:** ويعني انغلاق الخطاب على الذات، والتمحور في منطقة يحوطها كثير من الغرابة والذاتية. ويشتمل على أربعة خطابات:

الخطاب التفسيري الذي يجنح إلى التفضيل والتعددية في ظل الإطار الدلالي المغلق للدلالة المختبئة خلف النص وليس الدلالة الظاهرة على السطح.

والخطاب المحيطي الذي يتحرك داخل محيط الذات فيصير خطاباً مع النفس أو الروح

والخطاب الضمني الذي يجنح إلى التناسق والتوافق دونما فجوة أو فاصل يشعر المتلقي بتداخل أحداث نصية غائبة. والخطاب المعاكس: الذي يتم عبره انقلاب وانعكاس لغة الخطاب، فيصير الخطاب معاكساً لدلالة النص.

الهوامش:

1 -سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء وبيروت، ط3، 1997، ص7.
2 -تزفيتان تودورف، الشعرية، 1973، ص25، 26.
3- مينغينو، مقدمة لتحليل طرق الكلام، 1976، ص3:20.
4- عبد الفتاح يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، منشورات الاختلاف، ط1، 2010، ص15.
5- المرجع نفسه، ص 15،16.
6- المرجع نفسه، ص 63، 64.
7- المرجع نفسه، ص 66.
8- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط2، 1987، ص69.
9 -عبد الفتاح يوسف، مرجع سابق، ص69.
10- محمد الشهاوي، ديوان مسافر في الطوفان، دار المستقبل للنشر والتوزيع، ط1، 1985، ص123.
11- المصدر نفسه، ص 24.
12- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1952، ص202.

الزوجة في قصائد الشعراء الليّبين

يونس شعبان الفنادي

احتلت المرأة بجميع فئاتها العمرية ومراتبها الأسرية وصفاتها الاجتماعية حيزاً كبيراً ومهماً في مواضيع الشعر العربي على مدى العصور، وظلت ملهمة للشعراء العرب في جُلِّ الأغراض والأنماط الشعرية التقليدية والحداثوية، ولن ينسى تاريخ القصيد العربي فحول شعراءه الذين تناولوا المرأة وأدوارها ووظائفها المتعددة في أشعارهم، وأسبغوا عليها صفات كثيرة كالوفاء والمحبة والجرأة والغرام والعشق والهيام والجمال وغيرها، من أمثال عمر بن أبي ربيعة، وعنترة بن شداد، وقيس بن الملوح وحتى محمود درويش ونزار قباني الشهير بخصوصية نصوص قصائده الغزلية في المرأة.

ولكن ما يلفت الانتباه في ديوان العرب على مر الأجيال أن صورة المرأة الزوجة شريكة الحياة ظلت متوارية مخفية، ولم تكن حاضرة بشكل صريح وغزير في القصائد الشعرية، بل تسيّدت صور أخرى لها كانت المخاطبة أو المقصودة فيها غالباً هي الحبيبة والمعشوقة المكتظة بأنوثتها، وقدها الجسدي المفتون، وجمالها الآسر، وقد طغى ظهور هذا التصوير الجسدي والحسي الوجداني في معظم ملامح شعر التغزل والوصف، باستثناء قصائد الرثاء الحزينة التي نظمها الشعراء العرب بعد وفاة زوجاتهم، واستهلها الشاعر الرحالة الأندلسي أبوالحسن محمد الكناني المعروف ب(ابن جبير) بعد وفاة زوجته عاتكة الملقبة بأم المجد حيث نظم ديواناً شعريّاً كاملاً يرثيها فيه أسماه (نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح)، أما الشعراء المحدثين المعاصرين الذين أصدروا دواوين شعر كاملة في رثاء زوجاتهم، فأبرزهم ديوان الشاعر عبد الرحمن صدقي (من وحي امرأة)، وديوان الشاعر محمد البيومي (حصاد الدمع)، وديوان الشاعر طاهر أبو فاشا (دموع لا تجف)، وديوان الشاعر رابح جمعة (لذكراك)، وديوان الشاعر روكس العزيزي (جمد الدمع)، وديوان

الشاعر عزيز أباظة (أنَّاتٌ حائرة) وآخرين غيرهم.

ولاشك فإن هذا الرصد يجعل الكثيرين يتسائلون باستغراب عن أسباب غياب المرأة الزوجة في نصوص الشعراء؟ ولماذا يتجنب أو يتحاشى الشاعر العربي البوح بمشاعره الوجدانية والحبيّة العاطفية تجاه زوجته، حليلته وخليلته، وهي معه وبجانبه تشاركه صنوف وظروف حياته كافة، ويغفل أو يتغافل عن تسجيل مواقفها وإسكانها مجموعة أبياتٍ أو قصائد شعريةً ينشرها علانيةً بكل الاعتزاز والافتخار والتباهي؟ ولماذا يبقى فكرياً رهين سطوة الكتمان والتجاهل والابتعاد عن التعبير بتلك المشاعر الجيّاشة النبيلة، وطمس أحاسيسه تجاهها، فيظل خانعاً مستسلماً ومستكيناً لا يتمرد على السائد العرفي والتقليدي المهيمن فكرياً على حياتنا الاجتماعية؟

ورغم أن بعض الملاحظين لهذا الغياب أو النقصان يعتبرون أن ندرة تناول الزوجات في قصائد أزواجهن الشعراء، لا يمكن أن نعدها ظاهرةً مهمة في رصيد الشعر العربي ولا موقفاً انتقادياً سلبياً يطال الشاعر العربي، بقدر ما هو سياقٌ اجتماعيٌّ تحوطُهُ ثقافةٌ وأعرافٌ مُتوارثةٌ منذ العصر الجاهليّ، تمثلها قيودات العادات والتقاليد المجتمعية التي لا تقبل التصريح بالحب للزوجة عكس السماح به للأم والإبنة والأخت والجدة وغيرهم. فالزوجة لازالت مسجونة في العقلية المجتمعية العربية ومتوارية ومحجوبة لا يجب ظهورها على سطح الواجهة الاجتماعية، سواء من حيث الاشادة بقدراتها ومهاراتها الشخصية الذاتية أو من حيث الثناء عليها والتعبير عن مشاعر المحبة والافتتان بها والوفاء لدورها في معاضدة الزوج والوقوف معه في الكثير من النائبات أو الظروف الحرجة الصعبة على اختلافها اجتماعياً أو اقتصادياً أو صحياً أو غيرها. ولكن يظل السؤال قائماً ومشرعاً لسبر وطرح العديد من التخمينات، هل من بين تلك الأسباب أن زوجات الشعراء لا يتمتعن بدرجة من الجمال والحُسن والبهاء، أم لا يتحلين بالطيبة والرقة واللطافة والعذوبة؟ أم لا يبعثن أي نوع من الإلهام الحسي المحرك لولادة النص الشعري، أم ربما نظراً لأنهن لا يولين أي اعتراف أو اهتمام بإبداعات قصائد أزوجهن الشعراء باعتبار أن (زامر الحي لا يطرب)، أم غيرها من الأسباب التي تستحق مناقشتها والبحث والتقصي والتدبر فيها من خلال هذه الملاحظة اللافتة في حياة الشعراء العرب وبعض حقوق زوجاتهم عليهم؟

وتأسيساً على بديهية غياب الزوجة في النص الشعري عربياً فإنه عندما يكتبَ شاعرٌ ليبي قصيدةَ غزلٍ في محبوبته أو مناجاة طيفها وخيالها والتغني بجمالها وحسنها ولطافتها، فإننا نعد ذلك أمراً عادياً لا يشكل غرابةً أو تميزاً، لأنّ ديوان الشعرِ العربي والليبي ثريٌّ غزيرٌ وزاخرٌ وفيرٌ بالعديد من القصائد الغزلية بشقيها العفيف والصريح التي يكون غرضها وموضوعها الحبيبة والمعشوقة، ولكن الغرابة أنْ يُصرِّح شاعرُنا الليبي الكبير راشد الزبير السنوسي بأنَّ كُلَّ ديوانِه هو دفقاتٌ عاطفية ووجدانية وقصائد شعرية يمدح فيها زوجته شريكة حياته، فيثني على أفعالها، ويشيد بمواقفها، معبراً بصوت شعري جهوري صادح عمّا يحمله لها من عظيم المحبة والوفاء والتقدير لمكانتها في قلبه ومسكنه، والاعتراف بتأثيرها في فكره وصبرها وتضحياتها وتحملها وتقاسمها الحياة معه، وإبراز بصماتها في مشوار حياته، والاصرار على توثيق ذلك في المطبوعات والمنشورات السيّارة، دون إبداء أي حرج في إعلان ذلك على الملأ، بل يتمادى شاعرنا الكبير في التأكيد على اعتزازه ومحبته الشخصية الخالصة لزوجته بأن يُصَدِّر غلاف مجموعته الشعرية بعتبة عنوان صريح (ديوانُ رسائل إلى زوجتي) ليكسر حاجز الخجل والقفز على الأعراف الأسرية والتقاليد الاجتماعية المنغلقة، ويقف في مواجهتها وتحديها بشكل قوي مباشر، من خلال الإصرار على المجاهرة في عتبة عنوان المجموعة الشعرية بأنه (ديوانٌ) كاملٌ اختص به زوجته وليس مجرد قصيدة واحدة أو اثنتين، وذلك لمزيد التأكيد على دلالة المفردة الجمعية للإيحاء بالكثرة الوفيرة والتعبير السخي والثناء والاعجاب والاشادة والوفاء، وهذا كله يبعث فينا الكثير من الجاذبية والتشويق للتعرف على تلك المشاعر الإنسانية الثنائية الخاصة والصور الشعرية الابداعية التي صاغها شاعرنا الكبير في زوجته، وهي بالتأكيد ستظل رائدة وسابقة وربما استثنائية في المشهد الشعري الليبي الذي لم يعرف هذه الجرأة الشعرية قبل شاعرنا الكبير راشد الزبير السنوسي حفظه الله.

ديوانُ رسائل إلى زوجتي

أصدر الشاعر الليبي الكبير راشد الزبير السنوسي ديوانه المتميز (ديوان رسائل إلى زوجتي) سنة 1999 عن الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس، واعتبره هدية خاصة إلى زوجته "ثريا" كما ورد في إهداءه (إلى أمِّ الأحباء. إلى أمِّ أكرم الرجال. إلى زوجتي ثريا. أهدي باقة حنان وهمسة وفاء) ثم يقول في مقدمته النثرية (هذه المجموعة من القصائد ربما تكون الأولى من نوعها التي تقدم كديوان مستقل

يعبر فيه شاعر ليبي من خلال حديث موجه إلى زوجته عن مشاعره ناقلاً صوراً من معاناته خلال تجربة السجن التي مر بها. ولا تشكل هذه المقدمة دراسة نقدية لهذه القصائد وإنما تعتبر دليلاً يقودك إلى قلب الأبيات لتعايش التجربة كما مررتُ بها، ولن تصاب عزيزي القارىء بالدهش وأنت ترى عبارات الحب تتنفس طبيعياً وتمرح فوق السطور دون وجل).

ويضيف شاعرنا الكبير في مقدمته التوضيحية الشارحة (فالظاهر أن المعاناة تفك عقدة اللسان وتمنح التعويض المناسب لمعادلة ذلك الجو الكئيب الذي لا يقبل إلاّ بالصمت وبلادة الحسّ. لقد كانت المرأة في مجتمعنا كياناً هامشياً وسط مجتمع رجالي لا يظهر فيه إلاّ خلف غلاله وأضفت علينا البيئة الصحراوية شيئاً من قسوته حتى أن روح الفكاهة والنكتة استحال وجودها كطبع أصيل يعطي جرعة حانية لرتابة الحياة ومللها. ولقد بقيت الزوجة رغم وجود عدد من شعراء الغزل المجيدين منطقة محظورة لا يمكن كشف المشاعر نحوها إلاّ فيما ندر، ولذلك موروث استقر في الوجدان من أمد بعيد وأصبح من الثوابت رغم أنه توجه ظاهر الفساد ومادام التعبير لا يخدش حياءً ولا يفسد ذوقاً فأحرى بنا ألاّ نتردد في البوح به. فالحبُّ هو أسمى المشاعر الإنسانية وقد عظّمته جميع الرسالات ولهجت به كل الحضارات من حرف يكتب إلى نقش يبرز أو مجسم يرفع، وليس من عدو لهذا التوجه إلاّ التخلف والجهل. إذاً فأنا حينما أقدم لهذه المجموعة أشعر أنني قد تخلصتُ من خوفي، وكسبت نفسي وقلمي عندما تخلصت من التمويه والمداورة إلى التعبير عن معانٍ لا تحسُّ إلاّ بالصدق. وحسبي أنني جعلتُ من رفيقة عمري ملمحاً بارزاً في إنتاجي الشعري عبر عدد من القصائد أثرتُ أن اختصها بديوان مستقل إن كان قليلاً في عدده فهو كثيٌر وكبيرٌ في مشاعره وصدق رؤيته، وعساه يكون إشارة البدء لإبداعات يسهم بها شعراء آخرون في هدم جدار جثم على الصدور وحبس الكلمات في الحلوق حتى نرسخ في قاموسنا الشعري لفظة مازالت تبرز بحساب ومازلنا نفتقد إلقاءها وهي جوهر الكون وأكسير الحياة إنها بكل بساطة كلمة الحبّ).

لقد جاءت المقدمة القصيرة التي سطرها الشاعر الكبير راشد السنوسي وافيةً الشرح والتعليل والاعتراف المؤكد بأحقية إسكان الزوجة في النصوص الشعرية مثلما هي تستوطن قلوب مبدعيها الشعراء العرب وتعمر بيوتهم وديارهم بالبهجة والمسرة. وقد تضمن (ديوان رسائل إلى زوجتي) خمسة عشرة قصيدة تسلسلت كالآتي:

كلماتٌ إليها، من قصيدة "وصل المرج"، من قصيدة "عيد الميلاد الحزين"، رفيقةُ عمري، رسالةٌ إلى زوجتي، رفرف الطائر، رأيتُ في المنام، أواه يا حبيبتي، رفيقتي، صمتٌ قتّال، نجيةُ الروح، يا عروس الشعر، لم أكن أعلم، رفيقةُ عمري، نحمد الله.

ومن خلال استعراض هذه العناوين القصيرة الصريحة نلاحظ تكراراً جميلاً يرفعُ ويعلو ويسمو بقدر الزوجة ويمنحها صفة الرفقة العمرية الدائمة وشراكة الحياة الزوجية الأبدية. فنجد ثلاثة قصائد متشابهة العنوان حد التكرار هي "رفيقة عمري" المؤرخة في فبراير 1980م، و"رفيقة عمري" المؤرخة في 1976، و"رفيقتي" المؤرخة في 1983م، وهذا التعبير والإحساس الوجداني المتتابع زمنياً هو مؤشر على تواصل رحلة العلاقة العمرية الحبية بين الزوج الشاعر ورفيقة دربه وحياته بكل ما صاحب رفقتهما من مواقف وأحداث وخصوصيات. كما نلاحظ أنه مثلما لم يتحرج من ذكر اسمها صريحاً في الإهداء، فهو لم يتحرج كذلك من مناداتها (يا حبيبتي) أو وصفها (زوجتي) و(رفيقتي) والتباهي بها حين يناديها (عروس الشعر) و(نجيّة الروح) مما يعكس عظيم المحبة والاحترام والاعتزاز الذي يكنه لها.

وقد جاء نص قصيدته (رفيقتي) مؤثراً، حزيناً، مفعماً بالمحبة والشوق والحنين، طافحاً بالذكريات الأسرية الدافئة، التي استحضرها الشاعر الكبير راشد الزبير السنوسي وقت كتابة القصيدة وهو حبيس الجدران بعد مضي ثلاث عشرة سنة من تغييبه وراء القضبان في سجون النظام السابق حوالي عشرين سنة، ويوطن فيها اعترافه بأفضال زوجته عليه، فهي التي يستمد منها تحمله وصموده، مكرراً مخاطبتها (أنتِ) أربعة مرات للتأكيد على أهمية دورها في تجاوز محنته ومعاناته السجنية القاسية، كما يسكن نصه الشعري أسماء أبنائهما الثلاثة (أمل وصديق وعمر)، وينفث حزنه بتكرار صيغة سؤاله القاسي إليها بحثاً عنها (أينَ أنتِ) عدة مرات إشارة إلى إحساسه العميق بغياب وفقدان زوجته. ونجد أن إيقاع القصيدة قد اتسم بزفرات الأنين وشجن حزين موحش ظل بسيطاً خافتاً، حتى تعالى وتفجر في نهايتها مخلفاً سيول دموع صادقة منهمرة تدمي القلوب.

تقول مقاطع القصيدة الخمسة التي ظهرت متتالية بالديوان بلا ترقيم عددي:

ثلاث عشرة انقضت

طويلة بسهدها، ضنينة بوعدها

تترع من فؤاديَ الكؤوس بالشجن

تعبّني بلا ثمن
وليلها يزحمه الملال والإحن

(2)

ثلاث عشرة انقضت
وكل ليلة تموت دون أفق فجرها
يوقرها الآسى فتحتمي بخدرها
تنفث ما بصدرها
فتنطق الجراح من حرارة الألم
حين يضيق الجدار عينه ولم ينم

(3)

ثلاث عشرة انقضت
وكل ما يشدني إلى رحابكم حلم
يرحل بي إليكمو حين يهدني السأم
وقد خبرتُ ما يكابد المشوق من ألم
حين يرى طموحه قبل أوانه انهدم

(4)

ثلاث عشرة انقضت
وكنتِ أنتِ بلسمي، تعززين وقفتي
واستمدُ من صمودكِ الرائع قوتي
فأنتِ يا رفيقتي
أثمن ما كتبتُ في سطور قصتي
أنتِ التي زرعتِ في حياتي القُبلْ
حين منحتني (أملْ)
وحين أشرق (صدّيقٌ) وصنوه (عمرْ)
هم يا رفيقتي لنا ابتسامةُ القدرْ
وأنتِ من رعيتها كباقةِ الزهرْ.

(5)

ثلاث عشرة انقضت
وكلما فاض بي الشوقُ وأوغل السنا
هتفت أمنا
مضى الزمانُ بالمشاعرِ العِذاب والمُنَى
ولم تعد لنا
لمسةُ راحتيك تعرّشانَ سوسنا
وتنعشانَ في الصدورِ دفقةً من المُنى
سامقة تتخذ النجومَ مسكنا
فأينَ أنتِ أينَ أنتِ أين أنت ها هُنَا
فمَا أرى سوى الجدارِ والعناءِ والضَنَى

لقد أصدر الشاعر الكبير راشد الزبير السنوسي بُعيد تخرجه من كلية الآداب ببنغازي ضمن طلبة الدفعة الرابعة أول دواوينه الشعرية وهو (قيثارة الخلود) سنة 1963م وأتبعه (النغم الحائر) سنة 1967 ثم (أنفاس الربيع) في السنة التالية و(نشرة الأخبار) سنة 1998م و(همس الشفاه) و(الخروج من ثقب الإبرة) سنة 1999، ولكن ستظل مجموعته (ديوان رسائل إلى زوجتي) هي الأهم والأبرز في مدونة الشعر الليبي الحديث والمعاصر لأنها تنحاز للمرأة الزوجة شريكة الحياة، وتُرجع إليها بعض ما سُلب منها من حقوق شعرية ... فالشكر كل الشكر لشاعرنا الكبير الذي أعاد لزوجات الشعراء هذا الوجه أو الملمح الموضوعي، كما سمّاه في مقدمته النثرية، على أمل أن تتكرر هذه التجربة الإبداعية لدى شعراء آخرين في ليبيا الحبيبة وخارجها.

جماليات الاشتغال السردي والتداخل الإنواعي في الرواية

رواية وميض تلك الجبهة لسمير الفيل أنموذجاً

عبدالحكيم المالكي

مقدمة

تقع الإشكالية في كتابة رواية مثل رواية وميض تلك الجبهة للأستاذ سمير الفيل من كون الحكاية التي يتناولها الروائي (من حيث مادتها التأسيسية) متكررة ومتداولة بكثرة في مصر والوطن العربي، كما أنها تحكي عن القيم الكبرى: الوطن، والتحرير، والحرب، زمن حرب أكتوبر وما بعدها ضد العدو الإسرائيلي، ومع ذلك نجح الروائي أيما نجاح في الخروج بهذه المادة المتكررة من شحوب الموضوعات التي تداولتها الصحافة، والسينما، ونشرات الأخبار، وغيرها من وسائل التواصل الحديثة، إلى وهج إبداعي مميز.

تحقق ذلك عبر توظيف الراوي لتقنيات سردية مميزة، والسرد المختلط بالوصف، كذلك قيامه برصد كل مكونات المكان، تلك المكونات التي كانت هي ملح هذا العمل، وطاقته المميزة التي جعلته مختلفا عن كل ما كتب حول هذا الموضوع.

تقنيات الممارسة السردية المستخدمة في الرواية

تقنيات الممارسة السردية هي تفسير لما نعرفه دون أن نعي بالكثافة، أو كثافة السرد، وهي ممارسة حاضرة في السرد الحديث منذ ظهور أفكار كتابة الحساسية الجديدة1.

سيتم هنا متابعة بعض نماذج من الاشتغال السردي المميز على مستوى الممارسة السردية من جانب الوصف ضمن الاشتغال على الحواس، بينما

سنترك ظاهرتي الترهين2 والتأطير3 التي تميزت بهما الرواية أيضا بحكم طبيعة المقال القصير.

الاشتغال على الحواس4 في الرواية

كان الاشتغال على الحواس غير البصرية في هذه الرواية غائبا قليلا لصالح السينمائية البصرية، أو التصوير البصري المتحرك5، ولكن مع ذلك نجد في لحظات التوتر حضور الحواس الأخرى، لنلحظ هنا حضور حاسة الشم وعلاقتها بالقيم الكبرى، والبحث عن السر العميق الذي تعيشه ذات ذلك الراوي المسلح باستمرار بالأسئلة:

"وحكايات الشهداء تغمرني. في كل جلسة تملأ خياشيمي برائحة عرقهم، وأنفاسهم اللاهثة تضرب صفحة وجهي. سحائب من دخان تعبق جو الملاجئ "6.

تابعنا في المقطع السابق البعد الشمي لصالح ذكرى الشهيد ورائحته، بينما سنكون مع البصري المختلط باللمسي هنا ونحن نتابع هذه اللحظة التأملية المميزة على لسان المتكلم المنجز للخطاب:

"وأدركت أن الأشجار التي تكتم خضرتها في الدفرسوار، وتداري زهوها في انكسار، تحمل أغصانها زغب الطيور الأصفر في المنحنيات الدافئة. إن أعواد القش ترتج عند إطلاق رصاصة بندقية. فما بالك بقذائف الألف رطل؟"7.

الزغب وكذلك المنحنيات الدافئة تحضر لتعبر عن البعد العميق للشخصية المتكلمة الذي يرتج بالألم والطفولة. لنتابع لحظة الدخول إلى الملجأ للمرة الأولى في المعسكر:

"نهبط الدرجات القليلة خلفه.

أفزعتنا الظلمة. كنا نتعثر. كقطط خارجة من رحم الأم بأعين مغمضة لم نر شيئاً. تذكرت لحظة دخول السينما متأخراً بعد العرض. وكيف كانت يدي تتحسس المقاعد، وتصطدم بالأذرع والسيقان خلف المقاعد. حزم الضوء تسقط على الشاشة العريضة التي أراها بصعوبة"8.

لنلحظ في المقطع السابق العلاقة المميزة بين القطط العمياء وحاسة اللمس، حيث القطط تبدأ في التعرف على العالم من خلال الملمس والرائحة. هنا أيضا الراوي يضعنا في صورتهم كقطط عمياء، ثم ينتقل من هذه الصورة ليضعنا في تلمس الطريق داخل السينما حيث الظلمة وعدم معرفة الطريق .

البعد اللمسي هنا جاء ليعبر عن صورة سردية مميزة، وفي الوقت نفسه يعكس البعد العميق للمتكلم الخائف من

المستقبل ومن الأهوال التي لم تظهر بعد داخل معسكر الحرب.

سينمائية التصوير ضمن الحاسة البصرية وكثافة حضور أشياء المكان:

تميز السرد في هذه الرواية بالصورة السينمائية المتحركة التي تستطيع أن تغطي طبيعة الحركة في ميدان المعركة. هذه الصورة كانت تتميز في بعض الأحيان بكثافة حضور مكونات المكان وشعرية الوصف المميز، كما نجد في بعض الأحيان حضور الصورة المنفتحة في تأويلها لتضعنا في أبعاد أكثر انفتاحا.

لنتابع هذه الصورة في بداية الرواية التي ترسم الواقع في المعسكر، وتضع المروي له من خلال حضور مكونات المكان وأشياءه في إطار واقع الحال هناك، وتعكس في الوقت نفسه رؤية المتكلم بشكل غير مباشر:

"عساكر في البيجامات الميري الواسعة يخبون داخلها. ذكرتني فضفضتها بملابس السجن التقليدية التي رأيتها في أفلام الأربعينات .

آخرون ينشرون ملابسهم التي غسلوها بمياه الجراكن فوق حديد الملاجئ خلف التبة، وفي باطن المنحدر.

السحالي الفضية كانت كعادتها تدفن نفسها في الرمل ثم تعاود الظهور، وتكشف عن نفسها بصوت خشخشة الأوراق الذابلة الجافة"9.

إننا كما نرى أمام مكونين متلازمين سنراهما على طول النص: المكون الأول يتمثل في صورة المعسكر وكافة الأشياء ذات العلاقة بالحرب، وتجهيزات الجيش وغيرها التي تقدم ضمن إطار الصورة النمطية، بينما المكون الثاني نلمحه من خلال مكونات المكان الأصيلة كالسحالي وغيرها. الصورة التي رأيناها سابقا صورة متكاملة، ولكنها غالبا قريبة من الصورة الثابتة، بينما سنجد حضور الصور السينمائية المتحركة أيضا.

تعريف بطبيعة التداخل الأنواعي في الرواية:

نجد عند البحث عن المكونات السردية النوعية بهذه الرواية10 ما يلي :

1- السيرة. وهي سيرة أفراد.

2- السرد النمطي. وهو السرد العادي.

3- السرد التأملي. وهو المنطلق من طاقة الأسئلة والبحث عن العميق والخفي من خلال مسار حكاية الرواية.

4- سرد الحرب وهو السرد الذي تروى فيه حكايات الجنود والمعارك وبؤر الصراع .

من خلال المزج بين كتابة السيرة وكتابة الرواية مع أدب الحرب والسرد التأملي حقق سمير الفيل التركيبة المميزة لروايته (وميض تلك الجبهة) التي تحولت من كونها تسجيلا حرفيا لسيرة جندي على الجبهة إلى تأمل كامل في الحياة والموت والحرب والعلاقات الإنسانية .

وكان مما ساهم في تميز الاشتغال انتقاله المستمر ضمن خطاب هذه الرواية من سرد نمطي مع تقنيات مميزة إلى سرد تأملي، ومنه إلى ما يمكن تسميته بسرد الحرب، مع لغة مندمجة متسقة ومميزة وقدرة على التنويع في السرد. كان للخطاب التأملي الدور الأكبر في الخروج بالقضية من مجرد قصة محلية تخص أخوتنا في القطر المصري أو العرب ضد العدو المحتل، إلى قصة إنسانية فيها تأمل في قضايا الإنسان الكبرى: الحياة والموت والإيمان، ورفرفة خروج الروح، والشهادة، والقيم النبيلة، كذلك كانت حاضرة أيضا الخسة والخوف والجبن في بعض الأحيان، حيث الرؤية لم تكن أحادية بل كانت منفتحة

خلاصة

ليس هذا كل ما يمكن قوله حول هذا الرواية ولكن في إطار كتابة المقال ليس لنا أن نضيف أكثر سوى أن النص قد تميز كما أسلفنا بتوظيف عديد التقنيات السردية منها: الترهين، والتأطير، كما كان لحضور الصور الحواسية البصرية الثابتة والمتحركة دورا مهما في جعل خطاب الرواية مميزا. وظف الراوي كما تابعنا الصور الحواسية غير البصرية أيضا، مثل الصورة ذات البعد الشمي، وكذلك الصورة ذات البعد اللمسي للحديث عن أشياء حميمة أو مربكة في لحظة خاصة هي لحظة الحرب .

بقت الميزة الكبرى ضمن خطاب هذه الرواية هي طاقة الوصف التي كانت أداة هذا الراوي الناجح الذي أخذه إلى شط الأمان، حيث كان الوصف مناسبا للحظة السردية، حاشدا لمكونات مناسبة للمكان، مع لغة عربية مخففة بلهجة مصرية مفهومة، خاصة عند الحديث عن أشياء الفضاء الحربي. إننا إذن أمام عمل ثري مميز تداخلت فيه عدة تقنيات لبنائه فكان نموذجا يجمع بين قصة القضية وتقنيات الحساسية الجديدة، والتداخل الأنواعي المميز ببعده التأملي.

الهوامش:

1- الحساسية الجديدة هي تسمية أطلقت على تجربة الكتابة المعتمدة على الوصف وعلى الاشتغال البصري للسرد ومن رموزها فرنسيا الروائي لعروف (الان روب غرييه) وقد اشتهرت عربيا منذ تجارب ادوار الخراط ومن تلاه ممن اتبع نفس الأسلوب.

2- هي تقنية ممارسة سردية على مستوى السرد وفيها يتم الربط بين مكونات الحكاية فيرتبط حدثا ما بحدث اخر او حدثا ما بشخصية وهكذا أن يرتبط حضور شخصية بمكان.

3- التأطير أو حضور اطر الحكي (الحدث الشخصية الزمان المكان) في الجملة السردية، وهي تقنية تحول السرد من بعده الأحادي البسيط إلى سرد مميز بحضور محددات الإطار القابلة للتخيل بدل السرد السطحي القديم.

4- نقصد بالاشتغال على الحواس الصور المختلفة التي تملك إيحاءً بوجود حاسة ما تشتغل عليها الصورة؛ كالحاسة البصرية أو السمعية أو الشمية أو اللمسية أو التذوقية، وهي تقنيات مستعملة بكثرة في الرواية الحديثة. وهذه الصور من الممكن أن تكون متحركة أو ثابتة، كذلك من الممكن أن تكون واقعية قابلة للتحقق أو فانتازية.

5- يتم تسمية المشهد الذي فيه اشتغال تصويري لصورة متحركة بالسينمائية باعتبار أن الصورة في السينما بصرية ومتحركة.

6- سمير الفيل، وميض تلك الجبهة، (نسخة الكترونية من الرواية) ص:25

7- سمير الفيل، وميض تلك الجبهة، ص:41

8- سمير الفيل، وميض تلك الجبهة، ص:17

9- سمير الفيل، وميض تلك الجبهة، ص:14

10- للمزيد حول التداخل النوعي والإجناسي: راجع القسم السادس من كتاب استنطاق النص الروائي، عبدالحكيم المالكي، دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، ط.1،،2008م

الفنان المسرحي والتشكيلي عبدالعالي شعيب

مسرحية السيد جمجمة غيرت شكل المسرح في ليبيا

لا يوجد أي شئ في الوجود ليس له علاقة بالفن

حاوره: عبدالرحمن سلامة

نلتقي في هذا العدد مع فنان أحب الألوان وعشق المسرح وكانت له بصمة واضحة، استهوته الألوان الطبيعية في الجبل الأخضر الأشم، ليست فقط الألوان البيضاء التي كانت مبعث أمل له وإنما كل الألوان لأنه عرف سرها وكون علاقة ليست عادية بينه وبينها، علاقته كانت ملونة مع اللون فتحرك بعدها على خشبة المسرح فكان يخرج ويمثل بفن وهذا ما جعله مختلفاً عن الجميع، الفنان التشكيلي عبدالعالي شعيب..

-أنت تعرف أن الحياة مليئة بالألوان وصراع الحياة هو صراع ألوان، واللون يشكل جزءً كبيراً من حياتك

-أنا سعيد جداً بهذا اللقاء وقصة اللون مع الحياة هي قصة الحياة مع ذاتها، اللون في واقع الأمر هو الذي يميز الأشياء والحقائق عن بعضها وهو الذي يفرز الضوء والضوء بدون ألوان هو عبارة عن موجات خالية من أي مدلول ومسألة رؤيتنا نحن للألوان تختلف من حضارة إلى حضارة ومن شخص لأخر ومن مرحلة زمنية إلى مرحلة زمنية أخرى والألوان في الفن التشكيلي هى روح الفنان وهى الوسيلة التي يحاول الفنان التشكيلي من خلالها أن يبرز عواطفه ومشاعره وأحاسيسه مثلما يبرز الشاعر بالمفردات ومثلما يتناول الموسيقي بالألحان عواطفه وتجربته ويبثها في آذان المستمعين أيضا الفنان يحاور العين عن طريق اللون والفن التشكيلي في محيطه العام هو عبارة عن لون يغازل العين، والعين الذواقة هي التي تستطيع أن تستخلص من هذه الألوان ومن مدلولاتها ما الذي يريد أن يقوله

الفنان، والحياة إجمالاً لا تتجاوز الخط واللون، والخط يرسم عادة باللون الأسود أما اللون فإنه يعطي مساحات وبراحات أكثر اتساعاً ونحن عندما نتعامل مع الحياة باللون الحيادي سواء كان الأسود أو الأبيض فسنجد أن الحياة ليست لون أبيض وأيضاً ليست لون أسود، الحياة مجموعة ألوان، اللون الأسود خادع وكذلك اللون الأبيض خادع، ولكن هذه حقيقة موجودة فاللون الأسود أناني يمتص جميع الألوان ولا يبثها واللون الأبيض أيضاً أناني لأنه يمتص جميع الألوان ويبثها جملة مع بعضها فتفقد حيويتها وبريقها وبالتالي فالحياة لابد أن نراها بجميع الألوان، فحتى في المسرح فإن عنصر الإضاءة يلعب دوراً مهماً في إثراء المشهد المسرحي والإضاءة هي عبارة عن لون بالإضافة إلى تلوين الفنان نفسه للحالة التي يتناولها على خشبة المسرح بدرجات تستشعرها كحالة تشخيصية ولكن في حقيقة الأمر هى تلوين، حتى في لغة المسرح نطلق عليه تلوين، فمسألة اللون وما نعيشه نحن في حياتنا كمجتمعات تميل إلى الصحراء والجفاف وهذه المجتمعات ابتعدت عن بهجة اللون وبالتالي افتقدت إلى مصطلح السعادة، اللون هو شغف وكذلك السعادة شغف والحياة ما هي إلا سعادة، هل تستطيع أن تتخيل الحياة بدون لون؟ ولو تخيلتها بدون لون هل تستطيع أن تتخيلها بدون سعادة؟ ولا يمكن إطلاقاً أن توجد سعادة بدون لون، ونحن في ليبيا على سبيل المثال كان أجدادنا يعيشون في خضم لوني عجيب بالرغم حالتهم البسيطة والفقيرة إلا أنك تجد البيت بألوان منوعة و تجد (المنضدة) فيها الإكليل والكليم وتجد فيها الشليف تجد أشياء كثيرة ومتنوعة ومنوعة وتجد السحارية التي يضعون فيها خمسمائة لون وتجد الرداء والجرد والفجرة والفضة كلها كانت ملون وتعطي بهرجاً جميلاً جداً للحياة ولكن كيف فقدنا هذا البهرج أن المسألة لها علاقة بالثقافة لأن الثقافة هي ليست فقط قراءة مجموعة كتب ولكن الثقافة هي الأشياء التي تأخذها من الحياة وتجنيها من تجربتك وتستطيع هى أن تجعل حياتك أسهل وهذا تعريف الثقافة بمعنى بسيط جداً، ومن ضمن الأشياء التي ينبغي أن تتوافر في حياتي أنا كإنسان هي أن أكون سعيداً وسعادتي هذه لا تتحقق إلا من خلال مجموعة معطيات من أهمها أن أرى الحياة ملونة وبالتالي لا أصاب بالملل ولا أصاب بالاكتئاب، تجدني مشغولاً باستمرار لأن عيني تبحث عن لون وتجده، وللأسف نحن حتى ولو بحثنا عن لون في حياتنا الآن لا تجده، نحن نميل إلى الرماديات أو البنيات فقط، حتى لو تعرض علينا سيارة ملونة نستهجنها فقط نحرص

على اقتناء السيارات السوداء أو البيضاء أو الرمادية، وهذه المسألة تستحق البحث الحقيقي لأن الهوية بلا لون سهلة التزوير حتى الكرت أو البطاقة الشخصية إذا لم يكن فيه ألوان وتداخل لوني فأياً كان بإمكانه تزويرها وهويتنا نحن بلا ألوان سهلة التزوير وأعتقد أن هويتنا زورت.

-وماذا عن التوافق اللوني في حياتنا؟

-وجود اللون في حياتنا شئ والتوافق اللوني شئ آخر ومدى قدرتنا على إيجاد التوافق اللوني هذا شئ يأتي بالتمرين وبالتعود فأنت عندما تدهن جدار بيتك في البداية قد تستهجنه ولكن مع التعود يصبح هذا اللون مريحاً لك، حتى عندما نرى الرداء الذي تلبسه السيدة الليبية في البادية من خلال الألوان والتخطيط والتداخل اللوني تعودنا على رؤية هذه الألوان وامتزاجها يعطي شكل جميل خصوصاً عندما ترتديه السيدة، فمثلاً يقال اللون الأسود هو ملك الألوان هذه المقولة المشهورة قد تكون صحيحة فيما يتعلق بالملابس لأنه وجد في مجتمعات محيطها ملون فأصبح وجوده بينها مميز وأصبح الأسود لوناً لأنه وقع في محيط ملون ولكن عندما تضع اللون الأسود جنب الأشهب أو الرمادي أو في مكان خالي من الألوان حينها سيوحي اللون الأسود بالكآبة ولن يصبح ملكاً أو حتى حاجباً والتعميم في مقولة أن اللون الأسود ملك الألوان لا يجوز وبالنسبة لبيئتنا التي كانت موجودة قديماً على الرغم من الثقافة البسيطة السائدة إلا أن الناس أحبت الألوان، أخلاقهم وتعاملهم مع بعض جعلهم يضعون أولوية للون، فعندما تأتي المرأة تريد أن تنسج شيئاً كانت تبحث عن الألوان قبل بحثها عن الشكل، والمسألة المهمة هي كيف نحن نحب اللون؟ ولا يوجد على الإطلاق لوناً قبيحاً، ولا يوجد شيئاً في الحياة غير ذي جدوى، الحياة قائمة على مبدأ الدفع بالضرورة لأن الضرورة هى التي تصنع الأشياء في الحياة، وما عشناه نحن كمجتمعات كئيبة ومقلدة نحن نصحو ونعيش يومنا حتى ننام نتعامل مع أشياء مستوردة من الخارج من ملابس وأدوات ومأكل وبالتالي أين تكون هويتنا، هل فقط أقول أنا عربي أو ليبي أو شرقي معناها حلت المعضلة، فعندما تقول أنا ليبي معناها يجب أن يكون عندك إنتاج، فأنا كفنان تشكيلي عندما أقوم برسم لوحة أو أقوم بعمل مسرحي لا أحس بخصوصيتي فيه على الإطلاق بالرغم من أني أرسم لنفسي وأترجم لمشاعري وأحاسيسي لكن لأنها مفرغة من المحيط وليست لديها صدى في المجتمع ولا يوجد في مجتمعي شئ ينتج حتى يقابله إنتاجي أنا وبالتالي يظل شئ خاص بي وليس أكثر من ذلك.

• • •

-ما السر الذي يكمن في الفن التشكيلي دون الفنون الأخرى؟

-الرسم يعتبر غريزة في الإنسان والغريزة الحيوية الموجودة في الإنسان هي غريزة محاولة الخلق، فخلايا جسمك تتكون في اليوم عدة مرات وتتجدد وتخلق والإنسان موجودة فيه منذ صغره غريزة كيفية خلق وصناعة الأشياء وعندما يلجأ للرسم لأنه أول وسيلة وحتى قبل ما ينطق الإنسان كان يعبر عن طريق الرسم وكان يسجل في أحداث يومه على الكهوف والصخور عن طريق الرسم وكان يصنع في أدواته عن طريق النحت، ومسألة الخلق هي غريزة منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان لأنه بث فيه من روحه وإذا قمعت غريزة الخلق لدى الإنسان سيتحول إلى إنسان سلبي وإنسان محبط أو إنسان آلي وتنميتها هذه مسألة أخرى، إما أن تنمى في اتجاه الرسم ويكون فنان أو تنميها الحياة غصباً عن الإنسان، كل إنسان فينا يملك في داخله فنان فقط من يهتم في هذا الجانب ويجد مفتاح الدرج الموجود فيه ويتعمق فيه هو الذي يصل إلى أن يصبح فناناً تشكيلياً.

-كيف اهتديت أنت لهذا المفتاح وأصبحت فناناً؟

-أول مفتاح وجدته هي فكرة المفتاح نفسها، أنا آمنت منذ الصغر أنني كإنسان قادر على أن أفعل ما أريده وأن أغوص في أي مجال وبالتالي إيماني بوجود هذه الأدراج في داخلي هو من جعلني أبحث عن كيفية فتح هذه الأدراج، وأنا منذ طفولتي نشأت في حضن شقيقي شعيب رحمة الله عليه فقد كان فناناً تشكيلياً وخطاطاً وفناناً مسرحياً هذا الشخص أثر في على الرغم من أنه لم يعمر طويلاً توفي وأنا في الصف الثاني الإعدادي بعدها اهتميت بنفسي كذلك النشاط المدرسي كان فيه زخم وحياة في الفترة التي شببنا فيها كان النشاط المدرسي عامل مهم جدا جدا فقد طور من إمكانياتنا ومن مواهبنا وكان فيه أساتذة من مصر ومن دول عربية أخرى ومهم جدا الاهتمام بالنشاط المدرسي وإهماله تكديس للجهل وما نسمعه من تغييب النشاط المدرسي وتغييب الرسم والموسيقى والفنون في المدارس اعتقد ليس في صالح أحد على الإطلاق بل أراه أنه قصور في الرؤية الاستراتيجية للمجتمع والذي ينظر بأي أيديولوجية أو بأي تفكير ليصنع ايديولجية بعيدا عن التكوين السيكولوجي للمجتمع أو بعيدا عن انثربولجيا المجتمع نفسه هذا قاصر بالتأكيد ولا يعي ما يفعل ويفكر في اتجاه واحد، كل الأعراف والديانات في جميع المجتمعات والحضارات طورت في حياة

المجتمع عندما طورت من أحواله الايجابية حاولت أن تبعده عن أحواله السلبية لكن أن آتي للجوانب الايجابية ونبدأ في تقليمها معنى ذلك أنني بدأت في صناعة مجتمع هجين وجيل لا يتذوق وغير مثقف والحياة ليست رياضيات وفيزياء وكيمياء ولغات فقط ، صحيح هي أشياء مهمة لكن انعكاسها على تكوين الإنسان، لو الفيزياء إذا لم تنعكس على حياتي وتجعلني أن أعيش سعيداً فليست لها معنى.

وهذا ينطبق على الأحياء والكيمياء والرياضيات وهذا الانعكاس إذا لم يجد صدى فني داخل الإنسان وكيف يتعامل مع الآخرين ومع نفسه وهذا لا يعلمه لك إلا الفن، أما الرياضيات فتعلمك فقط أن واحد زائد واحد يساوي اثنين لكن الفن يعلمك أن واحد زائد واحد لا يساوي اثنين وإنما يساوي براحات وآفاق وأعماق، وحظ مجتمعاتنا أنها لم تأخذ فرصتها الكافية لتقفز القفزة التي يخشونها هذه القفزة لا بد أن تؤخذ من الشعوب ومن الحكومات ومن المثقفين، نحن حتى مثقفينا - وهذا ليس تجني واستهجان وهذا ليس عيبهم ولكن بيئتهم - عند حدود معينة ويقفوا، طالما أنني مازلت أقف عند تلك الحدود معناها لن أصل أبداً، المسألة تحتاج إلى قفز فوق كل هذه الحدود وتجاوزها كلها بقرار اجتماعي حقيقي وان نصرخ بأعلى صوتنا أننا نريد فن وثقافة ونريد عمق، فالحياة ليست أكل وشرب فقط، نحن الآن نتفرج على التلفزيون ونستعمل الهواتف ونطالع الانترنت ونستمتع بذلك ولكن كلها بعيدة عنا.

-هناك من يتمنى أن تعم الألوان مدننا وتميزها، أنت من مدينة البيضاء التي يحتضنها جبل أخضر فهل تأمل أن تطلى كل البيوت من الخارج بلون يناسبها ويميزها وكذلك الأمر لبقية المدن؟

-هذه المسألة مهمة وأنا أعشق هذه المدينة وأعيش فيها عمري كله ولا أعتقد أنني تركت مدينة البيضاء لأكثر من أسبوع في حياتي كلها وحقيقة في كل مرة نحاولوا أن نصنعوا حالة من الحالات التي تتحدث عنها أنت الآن وكذلك الحال في كل المدن الليبية ففي الجنوب تجد الجمال وكذلك الغرب وأيضا الشرق فعندما نتحدث عن طبرق ودرنة عن سوسة ورأس الهلال ومدينة البيضاء في وقت من الأوقات كنت تتجول في شوارعها لا تشعر بالملل كان فيه نسق وبشاشة وروعة وفيه رهبة أتذكر شارع العروبة وفندق قصر البيضاء على الرغم أنه كان غير مؤثث لكنه جميلا ولكن لا يوجد فيه تخريب، فنحن الآن لا نبحث عن الكمال في مدننا ولكن على

الأقل لا نخرب حتى يأتي من هم بعدنا وتكون لديهم القدرة على التطوير، فأنت عندما تدخل بيت أي ليبي تجده من الداخل مرتب ومعطر ومؤثث وعندما تفتح الباب وتخرج تجد الصورة منقلبة تماماً وعندما تدخل بقية البيوت تجد نفس الصورة إذا الخلل يكمن في الحس الجمعي والحس الجمعي هذا لا يتشكل إلا بالقدوات والقدوات لا تتشكل إلا بوجود ثقافة وفن، ونحن في مجتمعنا الليبي ونتيجة للتفكير الفردي في فترة من الفترات قمعت حالة القدوات، كان هناك اسم واحد ولا يجوز وجود اسم آخر، فليس عندنا قدوة في الفن ولا في العلم ولا في السياسة وتعودنا حتى عندما يسعى أحدنا ليصبح قدوة نحاربه ونرجعه للخلف، ودائما نحن نقول يجب أن يكون لدينا.

ولدينا وفي الحقيقة حياتنا مليئة بالتناقضات فأنت تريد أن تقدم شيئا للمجتمع افعل ذلك أو أترك مكانك لغيرك للقادرين على العمل، وأرجو أن لا يزعل مني أحد، إذا أردنا أن نعمل علينا أن نكون أكثر صراحة مع بعضنا البعض، نحن المجتمع الوحيد الذي لا يملك شئ ونرى في أنفسنا أحسن ناس في العالم، الليبي الوحيد الذي يقول " عقاب صيني " إذا كان الأمريكان والإنجليز لا يقولون مثل هذه العبارة لأنهم يعرفون أن من علمنا القراءة والكتابة هم الصينيون وعلمونا كيف نوقد النار ونطهي اللحم وحضارة الصين ممتدة من عشرة آلاف سنة قبل الميلاد كان فيها الحكماء الخمسة قبل أرسطو وقبل سقراط وأفلاطون وقبل الفراعنة أو نقول " عقاب مصري " هذا غير معقول، إذا كان المصريين والصينيين والآشوريين وغيرهم نقول عليهم " عقاب " معناها نحن ماذا؟ بالرغم من هذه النظرة لكن العلاج متاح لليبيا مازال فيها كثير من المثقفين وكثير من الذين بإمكانهم استلام زمام الريادة من جديد والفرصة الآن متاحة لكن عندما نريد أن نصنع مجتمعاً علينا الابتعاد عن التزلف وعن النفاق وأنا انصح نفسي وأخوتي الفنانين والمبدعين أن يكون همنا هو بناء هذا المجتمع.

-هل يمكن أن تكون الألوان علاجاً نفسياً؟

-طبعاً وهذا باب كبير جداً في علم النفس يطلق عليه سيكولوجيا الفن والعمل النفسي للفنون مهم جداً والحالة الموجودة لدى الفنان التشكيلي هي علاج للناس فالسيارة على سبيل المثال صممها فنان تشكيلي ، من بنى البيوت ومن بنى الأهرامات، هو فنان تشكيلي، ومن ينقل لنا الصورة في التلفزيون هو فنان خلف الكاميرة ومن يصمم لنا في ملابسنا هو

فنان، وإذا لا يوجد فنان في المجتمع ستتعطل الحياة تماماً، المرأة في بيتها أيضا فنانة فالحياة بدون فن فإنها تتعطل تماماً، والفن إجباري ومهما حاول المحاولون ومهما سعى الساعون ومهما تفنن المتفننون في قمع هذه الحالة فإنهم حتماً فاشلون إن صح التعبير، فالحياة كلها فن، صرخة الطفل عند ولادته فن هي فن الحياة والعبادة فن فعندما تستمتع بعبادتك هو فن ومتعة وعندما توصلك عبادتك أن تستمتع وأن تكون سعيداً معناها أنت مارستها بفن فكل شئ في هذه الحياة فن، يقال سائق فنان أو قائد فنان، فكلمة فنان نستعملها في الحياة وعندما نأتي لجذورها وأساساتها نستهجنها وهذا تناقض كبير في حياتنا وحياتنا كلها مليئة بالتناقضات حتى في أحاديثنا تجد المثاليات لكن عندما نأتي للبيت نتحول إلى دكتاتوريين على الزوجات والأولاد والجيران.

-مرسم عبدالعالي شعيب هو ملجأ للهروب من مشاكل الحياة الآن؟

-وجودي في المرسم الآن ليس هروباً بل أنا موجود في مكاني الطبيعي والصحيح وعندما أخرج من المرسم معناها أنا هربت، واللوحة بالنسبة لي هي وطن، وأنت ممكن أن تشردك الظروف ولكن لا يمكن اتجردك من قيمك ومن أحاسيسك ومن مشاعرك وأنا عندما أكون موجوداً في مرسمي فإنني لا أمارس الهروب بل أنا أمارس قمة الاستقرار والطمأنينة والهدوء وأكون في أحسن أحوالي وعندما أجبر على أم أترك اللوحة وننخرط في الحياة هذا هو الهروب والفزع والشتات الحقيقي إلى أن أعود إلى موطني من جديد من خلال الجلسة أمام اللوحة أو الوقوف على خشبة المسرح.

-هل الفنان عبدالعالي شعيب لديه لوحات يرى أنها لم تكتمل وتحتاج إلى أوقات لاستكمالها؟

-لا يوجد فنان في العالم أكمل لوحته إطلاقا لأن الفنان دائماً يسعى للكمال والكمال صعب المنال وبالتالي تظل اللوحة دائماً مفتوحة ولكن الفنان يصل إلى حد معين وتنغلق عليه اللوحة وتقف عند هذا الحد سواء لأسباب حياتية تتعلق به أو لأسباب نفسية وأنا لا استطيع أن ارسم لوحة واحدة فقط فأنا تكون أمام عدة لوحات مفتوحات في ذات الوقت مثلما يكون لدي ثلاثة أو أربعة كتب على الوسادة مفتوحات لا استطيع قراءة كتاب واحد لأنني ملول ولابد أن أنتقل من زهرة إلى زهرة لأثري خليتي أو لأثري "جبحي" فلا يوجد لوحة في العالم لوحة مكتملة ولا يوجد أصلاً شئ ثابت فأنا أرى اللوحة اليوم بشكل وغداً أراها بشكل آخر وهناك لوحات كثيرة لم تكتمل بالمعنى الحقيقي

وهناك لوحات تفشل ولوحات تنضج والتجربة مستمرة وحياة واحدة لا تكفي الفنان التشكيلي لأن اللوحة معلم وكل جاهز ليعطيك درساً إذا جئته سيعطيك درساً وإذا لم تأته سيسجلك غياباً وأنت عندما تغيب عن الحياة فاللوحة مازالت تريد أن تعطيك دروساً .

-هناك من يصنف الألوان مثل اللون الأصفر لون الغيرة والأحمر لون الحب لقربك من الألوان هل تشعر بمدى صدق هذه التصنيفات؟

-في علم النفس يطلقون عليها المدلولات اللونية وهذه المدلولات وتم اكتشافها عن طريق علم النفس التجريبي، اكتشفوا مثلاً أن جماعة الشيزوفرينيا يميلون للون معين وكذلك مرضى الاكتئاب يميلون للون آخر ومجموعة الغيرة والأنانية وحب التملك يميلون للون معين ومجموعة السادية يميلون للون آخر وميول الناس لهذه الألوان هي التي تحمل هذه المداليل التي تم تثبيتها، لكن يظل في الأساس اللون هو اللون والرؤية الجمالية هي الأساس والأمور النفسية هي أتت فيما بعد، وحتى الأطباء النفسيين الآن بدءوا التعاطي معه في تصنيف الحالة ويظل اللون هو في نهاية الأمر اللون الأبيض هو مصدر كل الألوان وهو الضوء من خلال عملية فيزيائية تنعكس على الأشياء من خلال عملية كميائية تمتص جميع الألوان وتعطي لوناً واحداً ومجمل هذه العملية هى فيزيائية كيميائية.

-كيف ترى أهمية المعارض الفنية للفنان التشكيلي؟

-الفنان عليه أن يعمل حتى يؤثر في المتلقي، فكيف يغيب نفسه فعلى الفنان أن يدرس ويتأمل ويشاهد المعارض ويحتك بتجارب الآخرين والفنان غير مثقف هو فنان عاجز مثل الطيار الذي يمارس مهنته ولا توجد طائرة، أيضا الفنان والمثقف بصورة عامة في أي مجال فني أو ثقافي إذا لم تكن لديه قدرة على التشرب مثل الإسفنج لا يستطيع أن يعطي الآخرين شيئاً على الإطلاق وعمق التجربة لا يتأتى إلا من خلال دراسة تجارب الآخرين فعندما نرى تاريخ الفن نجده بدأ بالرسم على الكهوف ثم تطوروا وبنوا الأهرامات ثم التماثيل والجداريات والمنحوتات ثم جاء الرومان والإغريق إلى أن وصلنا إلى عصر النهضة وبدأت الفنون الكلاسيكية التقليدية العميقة ثم وصل الأمر إلى أن الفنان أصبح لا يريد أن يرسم في كنيسة أو استديو بل يريد أن يخرج للطبيعة وبدأت الانطباعية.

ثم قامت الحروب العالمية الأولى والثانية ففقد الفنان إيمانه بالطبيعة وبالحياة وبدأ

يرسم في الدمار إلى أن وصل إلى أن محاكاة الطبيعة لا تغنيه عن كل شئ فبدأ يفكر فيما وراء الطبيعة فنشأت السريالية ثم بدأت التجريدية إلى أن بدأوا يبحثون عن شئ آخر ودائماً هناك حنين دائم للرجوع للطبيعة لدى الفنان فلابد له أن يرجع للمحطة الأساسية الطبيعة ليدرسها من جديد ويستشف منها اللون والدرجات اللونية الجديدة فتجده بعد فترة يرجع إلى الطبيعة والى البورتريه وإلى التخطيط وإلى التشريح، والفنان لا يستطيع أن يعيش بمنأى عن الآخرين سواء الفنانين أو تجارب الناس، مخطئ من يعتقد أن الفنان يرسم في ذاته.

الفنان عادة عنده الأنا والنرجسية لكن هذه بعيدة عن فنه، الفنان عندما يتعاطى مع الفن يتعاطى معه بتجريد، يتجرد من ذاته ويصبح الآخرين هم همه، لكنه يتميز عن الآخرين من خلال بعض الطفرات التي يشعر فيها أنه مميز عن الآخرين وهذا حق طبيعي ولابد منه.

-هل تتذكر المعارض التي شاركت فيها سواء في البيضاء أو خارجها؟

-الحياة كلها مليئة بالمعارض والحياة بالنسبة لي هي عبارة عن معرض به لوحات متتالية ومستمرة وعلى الصعيد الشخصي نحن نقوم بالمرسم الجامعي وبإذن الله سيعود بقوة وهذا المرسم مرسم جامعة عمر المختار خرج العديد من الفنانين وقمنا بالكثير من المعارض في ليبيا وخارجها وتحصلنا على جوائز داخل وخارج ليبيا فإذا كان الفن رؤيا فالرؤية البصرية فن والجناحان الرؤيا والرؤية يجب أن يكونان في ذات الحالة فأنا آمل أن الجيل القادم من أبنائنا وأحفادنا أن يعيشوا في بيئة أفضل لأننا بصراحة نحن مازال لدينا قصور في الرؤيا الجمالية فعلى سبيل المثال تجد ليبي يبحث عن لزوجته وأبنائه أفضل الملابس ولكن غير قادر عن شراءه للوحة لفنان ليبي ويضعها في مربوعته ويتأملها ويهتم بها ولو فعل هذا الشئ سيجد فيها براحات وسيجد أنه صنع صنيع كبير لنفسه وأبنائه عندما تقول لهم هذه لوحة لفنان ليبي وعندما يأتيك ضيف تقول له ذلك وربما هذه الخطوة تغير لديك كثيراً من المفاهيم وهذا الموضوع ليس بالسهولة التي نحن نتخيلها ونعتقد أن العالم يشتري في لوحات وكفى فالقصة أعمق من ذلك بكثير فالموضوع موضوع حياة ومتعة ولذة.

-وماذا عن الجداريات داخل المدن الليبية؟

-بالنسبة هذا الموضوع موضوع أزلي بالنسبة لي وأتيحت عدة فرص وناقشنا

هذا الموضوع ولكن للأسف المسؤولين عندما تتحدث معهم يقولون لك احضر الطلاء والفرشاة وقم بالرسم على الجدار، ولكن في طقس مثل طقس مدينة البيضاء الجدارية لا تمكث حتى ثلاثة أيام، فكنت دائماً أطالب بتوريد فسيفساء وعندما يصل الأمر لمعرفة الأسعار يتراجعون لأن مثل هذه الأعمال مكلفة، وأتذكر في فترة سابقة أن محافظ الإسكندرية استدعى فنان مصري ليقوم برسم لوحة بفسيفساء في مكتبة الإسكندرية جاء هذا الفنان المصري من الخارج ولم يتحدث معه عن التكاليف وإنما جعل الحساب مفتوح المهم عنده أن يكون العمل عظيماً وجاء الفنان وقام برسم اللوحة واستعان بكلية الفنون بجامعة الإسكندرية وأنجزوا جدارية بالفسيفساء كانت غاية في الروعة زينت المكتبة وأعطتها قيمة أكبر، ونحن حاولنا مع عدة أمناء ووزراء حتى يوردون لنا الفسيفساء ولكن دون جدوى، لدي كثيراً من التخطيطات لنصب تذكارية وجداريات والتي أنفقت عليها ولكن كلها لازالت تخطيطات لم ينفذ منها أي شئ .

-وماذا عن أبي الفنون المسرح؟

-الفن التشكيلي نمارسه في الحياة وعندما نأتي للمسرح نجد حياة أيضاً، المسرح هو حياة صغيرة، فعندما تقف على خشبة المسرح ملابسك وإضاءتك وديكورك كلها فن تشكيلي أو ما يسمى إجمالا بالسنغرافيا هو فن تشكيلي وبالتالي وجود الفنان التشكيلي في العمل المسرحي ضرورة، برخت من أعظم شخصيات المسرح كان فناناً تشكيلياً وشكسبير قبل ما يكون كاتباً مسرحياً ومخرجاً كان شاعراً فالمسرح لم يطلق عليه أبو الفنون من فراغ وهو يستقطب جميع الفنون، وبيت القصيد أن تجد مسرحاً حقيقياً تضع فيه كل هذه الألوان، وأنا مارست المسرح منذ نعومة أظفاري وفي سن مبكرة جداً مثلما مارست الفنون التشكيلية فتجد المسرح في اللوحة وتجد اللوحة في المسرح وانعكاس الفن التشكيلي في المسرح والمسرح في الفن التشكيلي أيضاً أثرى تجربتي في المسرح وفي الفن التشكيلي.

فمثلاً أنت كصفحي إذا لم تكن ملماً بما يفعله الصانع والجندي والفيلسوف والخائن وغيره فلن تستطيع أن تكون صحفياً فكلمة فن فهي مطلقة والتصنيفات الأخرى هي تفريعات داخل الفن فالفنان المسرحي يجب أن يكون لديه إدراك للون وإحساس بالعمق وبالمكان وإذا كان الممثل لا يجد نفسه جزء من هذه اللوحة فلن يستطيع أن يؤدي على خشبة المسرح.

انظر إلى إطار المسرح قبل بداية العرض هو عبارة عن برواز ترفع عنه الستارة مثل

ما كان زمان قبل المسرح الحديث كانت اللوحة توضع في المعرض وترفع عنها الستارة وكذلك في المزاد العلني ولازال هذا التقليد موجوداً إلى الآن كما يبدأ التفرج على العرض المسرحي بعد إزاحة الستارة وتبدأ مشاهدة اللوحة المتحركة المكونة من مجموعة صور على خشبة المسرح.

-وماذا عن التصوير الفوتوغرافي وعلاقته بالفن؟

-لازال النقاد والمتخصصون في حيرة من هذا الموضوع لأن هناك لوحات أخرجتها كاميرات وتسمى لوحات حقيقية ولكن في الإجمال لا تستطيع أن تقول أن أي مصور فنان أو كل من حمل كاميرة فنان فالتصوير الصحفي مثلاً هو مهنة أيضا ليس كل نساج فنان فالتصنيف إلى هذه اللحظة عاجز أن يصل بالمصور الفوتوغرافي أن يكون فناناً ولكن في الواقع هناك مصورين فنانين سواء في التصوير الفوتوغرافي أو السينمائي .

-مدينة البيضاء هي مدينة الإبداع لكنها تميزت بشكل لافت في المسرح..

-هذا صحيح والبيضاء استفادت من بعض الخبرات الذين عاشوا في هذه المدينة وعملوا من خلال النشاط المدرسي وعلى رأسهم الأستاذ صلاح المنشاوي رحمة الله عليه وكذلك الأستاذ وجيه مطر رحمة الله عليه والأستاذ عبدالوهاب الحديدي وهو الآن في مصر يعمل في السينما أطال الله في عمره وكان تواجدهم من خلال قطاع التعليم ولازلت أؤكد على أهمية التعليم في هذا الجانب طالما نحن عاجزين عن إيجاد مؤسسات حقيقية أكاديمية تتبنى الفن والبيضاء هي مدينة ريفية واقعة في حضن جبل ومجتمعها ريفي وبدوي ومركب تركيبة عميقة وكل ما يوجد فيه من جديد يعتبر طفرة وهذه الطفرة إذا لم يتم احتضانها قد تسرق وتنسب إلى آخرين، وربما أيضا غياب الإعلام كان له دوره، وناضلنا كثيراً في أن نظهر في الخريطة الفنية كما هاجر كثير من الفنانين والمبدعين إلى مدن أخرى وبراحات أخرى منهم شعراء كبار ونتيجة ضغوطات وأسباب معينة وفي منهم من تنكر لهذه المدينة ولم يذكرها ولم يذكر انه تعلم في هضابها وتعلم في شوارعها.

وكان المسرح في ليبيا عبارة عن كرسي صالون كبير وباب على اليمين وباب على اليسار ونافذة وطفل يجلس على الصالون ويدخل عليه والده ويسأله عن أمه ويعالج مشاكل زوجية ومشاكل اجتماعية بشكل عام وعندما جئنا نحن كجيل ووجدنا أساتذة استجابوا لأفكارنا استطعنا أن ندخل بالمسرح إلى فضاءات أخرى مثل

التجريب وقدمنا عدة عروض وكان في مقدمتها مسرحية السيد جمجمة والتي غيرت إلى حد كبير شكل المسرح في ليبيا ومن بعدها لم يعد المسرح في ليبيا على الاقل الذي يعرض في المهرجانات بالرغم من وجود من يتمسك بالمسرح الكلاسيكي وخصوصا جماعة الشباك والتجربة الحقيقية التي أتحدث عنها فإن المسرح من بعد عرض السيد جمجمة لم يعد كما كان، أصبح بعدها الفنان الليبي يبحث عن تأثير اللون وعن تأثير القماش ومن هنا فرضت حالة المهرجان التجريبي وكانت استحقاقاً حقيقياً لهذه المدينة ولم تأت من فراغ أو هبة من أحد فرضت بالضرورة للجهود التي قدمها فنانو هذه المدينة للوصول بها إلى أن تكون رقماً صعباً على الخريطة الفنية في ليبيا ومازالت تناضل بالرغم من تغول الإقليميين ومحدودي التفكير الذين لا ينظرون الى التجربة الليبية كمساحة كبرى وبالتالي التجربة العربية التي مازلت تحبو الى الآن ليس لدينا مسرح عربي، فقط عندنا مسرح يتحدث بالعربية لكنه ليس عربياً ونحن نسعى لأن يكون لدينا مسرحاً عربياً ومسرحاً ليبيا ذو خصوصية وموضوعية ويستطيع أن يكون قادراً على المنافسة وستظل مدينة البيضاء قادرة وستبقى رقماً حقيقياً في المسرح وربما تكون الرقم واحد على خريطة المسرح في ليبيا.

-في الفترة الأخيرة تقلصت الخشبات في البيضاء فهل تطمحون أن يكون في البيضاء مقراً لمسرح حديث ومجهز؟

-أنا لست متشائماً ولكنني لا أرى أية فرصة أمام فناني البيضاء فكل ما يقومون به هو مناداة للقمر فنحن منذ فترة نحلم بمركب ثقافي يجمع كل الفنون ولدينا البراحات والإمكانيات في ليبيا ان نبني مسارح متطورة ومجهزة وكبيرة تحوي كل شئ وأيضا المسارح الصغيرة التي تحمل عبق التاريخ.

لكن للأسف نحن رفضنا الاثنين المسرح القديم الذي فيه الذكريات وعبق التاريخ دمرناه وصادرناه والجديد غير مهتمين به وفي عام 2012 قلنا بأن الحل في ليبيا ليس حلاً أمنياً ولكن الحل هو حل ثقافي وتربوي فلابد أن نجعل هذا الجيل أن في ليبيا حدث تغيير ولكن القتال والدم لا تأتي بفائدة ولا تحدث تغييراً فإذا أردت التغيير افتح مصائف للشباب وابن مسارح ونواد وأرسلهم في بعثات علمية وتعليمية وتمنحهم حقهم في الحياة وأن يستطيع أن يتعلم ولكن للأسف مثل ما أؤمن بأشياء جميلة للوطن هناك آخرون يؤمنون بأشياء ليست لها علاقة بالوطن وهم المنتصرين إلى هذه اللحظة وبالتالي تحقيق حلم هذه المركبات صعب.

وبالتالي نحن كمنظومة فنية في ليبيا مازلنا القصور والشتات وغير قادرين على توحيد كلمتنا ولازلنا نسعى وراء التلميع الشخصي بالرغم أنه إذا لم تكن هناك قاعدة صلبة للفن في ليبيا فمهما لمعت نفسك فلن تحقق شيئاً.

-كانت لديك مبادرة لتأسيس كلية الفنون في البيضاء في السنوات الماضية الآن الحكومة في مدينتك هل ستحيي تلك المبادرة من جديد؟

-هذا حلم وطموح وسعينا حتى على الأقل أن يكون لدينا في البيضاء مرسماً ووصلنا إلى تحقيق الحلم وأصبحنا قاب قوسين أو أدنى على افتتاحه ولكن طار الحلم وتحول المقر إلى مطعم ثم بعد ذلك مسح من على وجه الأرض، قل لي من سيحقق لنا هذا الحلم وأنا سأذهب له، أنا لا أعرف أحداً من الحكومة، وعلى المسؤولين أن يعوا أهمية الفنون في حياتنا ويولوها الاهتمام والرعاية في العالم الآخر عندما تريد أن تسجل في كلية ما يضعون لك استبيانا من بين مفرداته ما هي هوايتك؟

فإذا لم يكن لديك هوايات يحولونك إلى الأخصائي الاجتماعي والنفسي باعتبارك حالة غير سوية ويراقبونك إذا فشلوا في معرفة هوايتك لأنك ستكون خطراً، نحن للأسف لا نحترم الألوان حتى في إشارة المرور، لكن بصراحة المسؤولين الآن ليس هذا هو همهم فأنا لو كنت مسؤول سيكون همي كيف يكون مجتمعي أفضل ولا احتاج إلى من يطرق بابي ويقول لي قم بإنشاء مسرح أو مرسم، معقولة أنا مسؤول نرضى بأن يطرق بابي أحد ويقول لي اهتم بالثقافة من كم سنة مر علينا عدد من وزراء الثقافة لم نسمع من أحدهم يتحدث عن إنشاء مسرح في ليبيا أو يقيم معرض للفنون التشكيلية ولماذا هو مسؤول الثقافة؟ ولم نمسع من مجلس النواب يسأل عن هذه الجوانب وهذا ليس خطاباً موجهاً للمسؤولين لأنني لا أفكر في المسؤولين حقيقية بل أفكر المجتمع غير القادر على إفراز مسؤول يحس بهذه الأمور لكن لو كان هناك تفاعل حقيقي في المجتمع لكانت الإفرازات حقيقية وصحيحة، ومن حظ البيضاء في سنة من السنوات أن تواجد في النشاط المدرسي فرج السعيطي وكان المسرح المدرسي في البيضاء كل عام في الترتيب الأول مثل اليوفنتوس في الدوري الايطالي .

-زرناك في **فترة** سابقة وجدناك عاكفاً على رسم عدة لوحات فنية.. فهل ستقيم معرضا فنيا؟

-نعم لدي عدة لوحات جديدة تحت الانجاز ولو أمد الله في عمرنا ووجدنا

المساحة المناسبة سنقيم المعارض لأن حياة الفنان هي أن يرى الناس أعماله وتأثير لوحة الفنان على المتلقي هو ما يبهجه فاللوحة معاناة وبهجتها أن يكون لديها متلقي، والفنان التشكيلي عندما ينجز اللوحة تصبح خارجة عنه وتصبح ملك للمتلقي.

-كلمة أخيرة:

-في الختام أتوجه للمسؤولين وأدعوهم بالاهتمام بالفن فأنا زرت مدرسة فقال لي المدير لا يوجد مادة الرسم فهذه كارثة، معناها كيف يتعلم يكتب وكيف يتعلم يحكي وكيف يتعلم أن لديه شخصية إذا لم تكن لديه حصة رسم أو حصة موسيقى كيف يتعلم فن الحوار كيف يتعلم يسكت ويسمع، إذا لم يتعلم الموسيقى والرسم، لا يوجد أي شئ في الوجود ليس له علاقة بالفن وأنا أتحدى أياً كان يقنعني بأي شئ ينافي هذا الكلام وأنا سأتبعه قالبا وقلباً إلى أبد الآبدين لأنه سيعطيني قيمة أخرى للحياة غير موجودة أصلاً.

ولكن لن يستطيع لأن كل شئ في الحياة فن، الخلق فن، تعاقب الليل والنهار فن، النجوم فن، الله قال لنا تأملوا في النجوم، فكلمة التأمل فن، الله كون الكون ورسمه وبث فيه الحياة فالإنسان ميزه الله عن غيره بالإرادة والإرادة ممارسة والإرادة فن والأمانة التي عرضها الله على الإنسان وظلم بها نفسه هي الإرادة هذا في تصوري وقد يعارضني الكثيرون وأنا أملك حق التصور، وأنا لا أتصور الحياة بدون فن لأنك ستتجرد من كل شئ، الخط العربي فن والزخرفة العربية فن والقصور الموجودة في الأندلس والزخرفة الموجودة في المساجد من منا عندما يدخل المسجد لا يتأمل السقف عله يجد زخرفة أو شئ يستهويه، من الفذ الذي يدخل المسجد ولا يبحث حتى عن المحراب على الأقل، ومسألة أننا نجزئ أنفسنا وندخلوا الحياة من الباب الخطأ فهذه مسألة خطيرة وأنا أوجه كلامي إلى المسؤولين المثقفين والمثقفين الذين لازالوا يبحثون عن هوية لهذا المجتمع ويطورونها ويغذونها وتهتم بالتاريخ وبالآثار، لماذا نقول الآثار اليونانية مثلها مثل آثار الفراعنة فالمصريون يفخرون بها ونحن لا نفتخر بآثارنا ونحولها عند الأجيال القادمة أنها موروث ليبي لأن الثلاثمائة يوناني الذين قدموا من اليونان ليسوا من بنى كل هذه المدن فالتاريخ يقول ثلاثمائة شخص هل يعقل أن يبنوا خمس مدن في فترة زمنية محدودة والحقيقة أن هناك ليبيين بنوا معهم كل هذه الآثار والدليل أن أجدادنا صنعوا أدوات وعملوا كهوف.

وأنا في الختام أشكرك جزيلاً أخي عبدالرحمن وأنت استدرجتني إلى حديث ذي شجون وأنا صمت منذ زمن وكلام كثير يفترض أن يقال في هذه المرحلة وكلام كثير يوجع القلب ولكن نقول أن ليبيا لازالت بخير وأتمنى أن كل الليبيين يلتفتوا إلى أشياء أخرى في الحياة هى التي تجد لهم الحل مشكلة الليبيين أنهم يفكروا في اتجاه واحد وهذا خطأ كبير وهذه الفكرة يجب أن يتملصوا منها ويفكروا بشكل أوسع وأعمق ساعتها سينجحوا غير ذلك سنظل فترة كبيرة في هذا التخبط وحتى ولو وصلنا إلى تسويات ستكون تسويات وليست حلول ونحن نريد حلولاً جذرية لأزمتنا وشكرا لك مرة أخرى.

زهـرة الليـل

علي الجعكي

حقول الرمل تبدو أمامي مترامية بدون أفق يحدد امتدادها، يظللها سراب ضبابي في حركة دائمة... قطع الصخور السوداء مزروعة على صفحة الرمل، وتتناثر على مسافات متباعدة مدّ البصر... هجير ورمل ساخن... صمت يطبق على المكان بثقل كوني هائل... أعواد جافة تتقصف تحت خطواتي البطيئة...

في الجهة اليسرى تنطلق الجبال الحادة بلونها الصخري الشاحب... تحوم فوق ذُراها البعيدة أسراب الغربان، وتظهر كنقط سوداء، تتحرك على زرقة السماء... عند السفح تتشبث شجيرات جافة بالحصى.. تنتحب الريح بين أعوادها، فتنتشر رائحة بخور يحملها الهواء الساخن إلى أنفي، فأنتعش قليلاً رغم ألم ساقيّ وغليان دمي.

هنا بداية الطريق التي نويت أن أسلكها منذ تلك الرؤيا التي تكررت لي سبع ليال متعاقبة. كان يحثني كل ليلة، ويرسم لي الوادي بعلاماته ومسافاته وشمسه، حتى حفظته عن ظهر قلب، ولم يعد الصوت يفارق سمعي... كلماته سكنت كل جسدي.. حروفها تتجمع في رأسي، وتملأه أزيزاً مرعباً كأسلاك معدنية تخترق دماغي... عليك أن تصل عند الغروب وقبل ظهور القمر... مع الحلول الأول ستراها تبهرك... تخرج كنجمة وحيدة على كتف المغارة... اقرأ ما علمتك دون أن تنقص ورداً واحداً... ردد بهمس حتى يتدلى العنق الطويل، ويقترب شعاعها من الطين، عندها تكون في قبضتك... اركع للرأس الحاني واقطفه... لا تترك ماءها يسقط على الرمل... لم أنسَ من التعويذة حرفاً... كان ينفثها في كياني كل ليلة... أحس بحرارتها تشعل جسدي... تنير لي الطريق في هذا الخلاء الذي لم يطأه بشري منذ القدم... تثير لديّ رغبة عارمة في أن أحلق عالياً، فوق تلك البقاع المنسية... أرحل في عمق الرمل، وشراسة الحريق المشتعل من كل شيء، حتى أصل المغارة... النجمة المتكئة على الكتف بشعاعها وألقها الغامض الذي لوث دمي منذ أن ظهرت لي أول مرة... كنت أرقبها في صمت وهي تتفتح في العتمة، وأعد نفسي بالتحول الكبير الذي ستمنحني إياه... يولد نورها من العمق، وينتشر حول شفاهها

الطرية... يرسم هالة شاحبة تنير لي الطريق... سكون كوني هائل يلف الأشياء بغلاف معدني... يوقظ الرهبة في داخلي، فيتحرك كائن عنكبوتي لزج، ويلف بأذرعه على روحي المعلقة... أشعر بانقباض مرعب يشل حركتي، ويملأ كياني خوفاً غامضاً... داهمني شعور بالندم لمجاراة أوهامي التي رمت بي في هذا الفراغ... كل الأشياء من حولي ساكنة إلا من أزيز يصفّر بأذني... لماذا أنا هنا؟... سؤال أخذ يكرر حروفه داخل جمجمتي، ويخرج من فتحات رأسي صياح يتردد صداه بين أركان الوادي. تذكرت أني وحيد هنا، فأطلقت حنجرتي أصواتاً وحشية، وصراخاً قديماً سكن الذاكرة المشوشة... رائحة الزهرة الغريبة تتسرب إلى أنفي...

لم أذكر أني شممت مثل هذا البخور الملكي المعتق... الظلمة بدأت تزحف على الأمكنة المتربصة... تخرج من المغارة وينتشر سديمها الرمادي... يتحول الرمادي إلى حالكٍ قاسٍ، فيتحول كل شيء... تختبئ الرمال والصخور لتمارس في الخفاء تحولها اليومي... إحساس غريب كان يجتاحني... يمسح داخلي بنعومة... جسدي بدأ يتحول في حضرة الزهرة المتفتحة بنور بارد... ملمسها الناعم ينبض كقلب حار... أحس بدقاته المتسارعة تسري بين أصابعي، وتتوغل عبر دمي إلى كل جسدي، كنت أتنقل في عمق المغارة برشاقة طيف أثيري... تتوه خطواتي بين التعرجات الرملية المظلمة، أحياناً تتضح لي الجنبات الخربة بنتوءاتها وغبارها... عروق جافة تتدلى من السقف، فتلمس رأسي وكتفي، وينتشر الرمل تحت ثيابي. طائر ليليٌّ يرفرف بجناحيه حولي... تلمع عيناه الكبيرتان فتعكس شعاع الزهرة... ينتفض بين الجدران الرطبة ويصدر أنيناً آدمياً مخيفاً... يسقط على الأرض ويشتعل بلهب أزرق... يعض على جناحيه ويتألم... رائحة الريش المحروق تعبق بفضاء المغارة... تمتد المخالب المعقوفة تحفر خدوشاً عميقة في الرمل... يهمد الجسد المحروق... يتلاشى الدخان في الجنبات المظلمة، يعطرها برائحة الشواء المتبل... ضحكة مجلجلة يتردد صداها في العمق البعيد...

صوت مألوف عرفته من رنته الحادة... مرت في ذاكرتي تعاليمه الطويلة... عاد الصوت من الظلمة بحدته ووثوقه... أنت قريب من الكنز... اقرأ أورادك في همس ثم اركع... يكون المفتاح في قبضتك... رعدة باردة اجتاحت كامل جسدي... دوار مخدر يحرك الجدران... تقترب مني.. الرمل يضغط على صدري... يملأ مسامي وينسكب إلى داخلي... العروق الجافة تخترقني، فأتعلق بالسقف.. الزهرة تنطفئ بين أصابعي.. رائحة الريش المحروق تملأ الفراغ... لحمي يشتعل بلهب أزرق فأعض على أطرافي وأتألم... حشرجة مبحوحة تتوجع بداخلي.. تعبق المغارة برائحة البخور القديم.. برائحة الصلصال المبلل بالمطر... يتضاءل جسدي الملتهب، ويمتد منقار جارح في مقدمة وجهي... تتسع عيناي فأتمكن من رصد كل شيء... ريش عطن ينبت من جلدي وينمو كزرع شيطاني حول أطرافي... مخالب حادة

تخرج من قدمي وتنغرز في الرمل. كل الأشياء تتحول في نظري... تكبر... تتغير ألوانها... كل شيء أصبح رمادي اللون... لا يمثل لي شيئاً... أشعر بحنين إلى دفء القش في أعلى السقف... أحرك جناحي في الفضاء المظلم... أنزلق بخفة بين العروق المتدلية... أستقر في العش المعلق... أتجه بعيني المدورتين إلى فراغ المدخل المطل على فضاء الوادي.

في انتظار الحب

جمعة بوكليب

"أُدينُ بدينِ الحبِّ آنّى حطتْ ركائبُه فالحبُّ ديني وإيماني ."

أنا لم أنظم بيت الشعر هذا. الصوفي مُحْي الدين بن عربي صاحب كتاب "الفتوحات المكّيّة"، هو من نظمه، منذ قرون مضت، مختتماً به قصيدة يقول مطلعها:

"ألا ياحماماتِ الأراكة والبانِ ترفقن لا تضعفن بالشجو أشجاني

ترفقن لا تظهرن بالنوح والبكا خفي صباباتي ومكنون أحـزاني"

كل ما فعلته أنا، هو أنني انجذبت، أولاً، إلى ذلك البيت الشعري، حين، صدفةً، لمحته مكتوباً بخط ملفت بتميّزه وجماله، في ملصق، ومعروضاً للبيع في مكتبة عربية، في شارعٍ جانبي، بمدينة أوروبية. وقمتُ، ثانياً، بشراء الملصق. ثم، ثالثاً، حملتُه معي إلى لندن. وبعد أيام قليلة، ذهبتُ به إلى محل متخصصٍ في صنع اطارات الصور، في فولهام روود، فأختار له إطاراً جميلاً. وعدتُ به، أخيراً، وعلقتُه كحرز، على جدار عارٍ، في لون الماجنوليا، في غرفة معيشة، تحت سقف بيت لم يطرقْ بابَه حبٌ لسنوات، وكأني بذلك أردتُ تذكيري، يومياً، بما كنتُ أفتقدُ، ومازلتُ.

كان ذلك، تقريباً، في شتاء عام 1998، في مدينة جنيف - سويسرا، وكنتُ خارجاً، لتوّي، من هول عاصفة حياتية مريرة، رمتني في عَراء الوقتِ، في مفترق طرق، من دون زاد ولا رفيق، مقلّباً عينيَّ في سماء تخلتْ عنّي، وباحثاً، بيأس وأمل، عن دليل يقودني، كما يقادُ أعمى، نحو طريق قد تأخذني إلى مالا أعرفُ وأخشى من مصير، أوبأمل أن ترشدني إلى ما أريدُ وأصبو من أحلام .

لكنّ، ذلك النهار، حين غمزني، داعياً، حرفُ الحاءِ، عبر واجهة زجاجية، لمكتبة عربية، في شارعٍ جانبي، في جنيف، لبيتُ الدعوة، وقصدتُه مستبشراً، وآملاً .

كان ذلك في أول زيارة لي إلى المدينة. ولم تكن تهمّني، وقتذاك، زيارة مدينة لم تكن يوماً مخبأة بين سطور أيامي .

جنيف، كانت ولازالت، مدينة مشهورة، وغارقة في العسل، تغنّي مواويلها بأعذب الأصوات والألحان، بعيداً عن صخب لندن، ومجون باريس، وجنون روما، وكأنها تسبح في فلك مدار كوكب، خاص بها، لكن ليس فيه ما قد يثير شهيّتي .

لم أعد أذكر ما الذي أوقعني، آنذاك، في فخاخ التفكيرفي السفر، وكأنني كنتُ أبحثُ عن مهرب من أوجاعي. وفكّرتُ أن قضاء بضعة أيام، بعيداً عن لندن، سوف يهوّن قليلاً من ألم جروحي. فجأة، برزت جنيف في ذهني. وأخترتها لتكون دوائي. ولم أكن أعلم أن المدن، وخاصة الأوروبية منها، ليس من وظائفها، أو من مهامها، مداوة قلب عليل من داء الوحشة، وتطييب خاطر نفس كسيرة من ذل الغربة، أوافتكاك روح أسيرة من حبس الفقدان .

الإطارُ مصنوع من خشب مصقول، بلون بنّي غامق. ولا أعرف، على وجه الدقة، تصنيف الخط الذي كُتِبَ به بيتُ ابن عربي، بلون بُنّي، على ورقة في بياض الثلج .

تصدرتْ كلمة الحب وسط الملصق، بحجم كبير. في منتصف حرفي الألف واللام المتجاورين، كُتبتْ "أدينُ بدين"، بلون يقترب من السواد. بخط أصغر حجماً، تحت كلمة الحب، كُتبَ بقية البيت الشعري .

اسم الخطاط مطبوع ببنط أسود صغير، في الزاوية اليمنى في نهاية الملصق، باللغتين العربية والفرنسية، مرفوقاً بعنوان الشركة، في باريس، التي قامت بطباعة وانتاج الملصق، الذي أشتريته آملا ومستبشراً، وحملته معي إلى لندن، وأخذته إلى حِرَفِي متخصص، كما تأخذ أم وليدها إلى فقيه، ليكتب له حَرَزاً يحميه من شرور الدنيا، وعلقته في بيتي. وأخترت له موقعاً، بحيث يكونُ ورائي، وفوق رأسي، لدى جلوسي على أريكة جلدية، بنيّة اللون، لمشاهدة التلفاز، أو للقراءة، أو للسرحان .

بمرور الوقت، وتبدل الأحوال، والحظوط، وتغيّر المناخ النفسي، وجدتني وقد تركت مكان جلوسي المفضل، وأجبرتُ على الجلوس على أريكة أخرى، مجاورة للأولى. معلقة على جدار ورائي، وفوق رأسي، مرآة مستطيلة، بمقاس كبير، وباطار ذهبي. وتقابلني، وجهاً لوجه، رفوفٌ خشبية صُفت فوقها كتبٌ وتصاويرٌ في براويز. وعلى يساري يقبع جهاز التلفاز، وخلفه نافذة تطل على حديقة البيت الخلفية. وعلى يميني ما قاله ابن عربي في زمن مضى، مثبت تحت لوح زجاجي، وأسيرالإطار الخشبي، ومعلق على جدار عار، كقلبي، لاعلاقة له بالحبّ، ولا بالشِعر، ولا بأبن عربي، ولا حتى بي، أنا، تحت سقف بيت، يسكنه صمتٌ، وتعنكب في أرجائه وحشةٌ قديمةٌ، برائحة تذكرني برائحة فاكهة عطنة، يقع في وريستر بارك، جنوب غرب لندن، ولم يطرق بابه حبٌ لأعوام طويلة، ولاتصله

عبر فتحة البريد، سوى فواتير واجبة الدفع، ودعايات لسلع ولشركات عديدة، لا علاقة لي بها .

ابن عربي، الصوفي، لايعرف أن ما نظمه من شعر سيتحول، بعد مرور قرون من الزمن، إلى مشروع تجاري، يباع في مكتبات أوروبا، بغرض أن تقع عليه أنظار أناس محرومين من الحب، ويدفعون لقاءه مالاً، من أجل اقتنائه، ووضعه في اطار جميل، يعلق على جدار، في مكان ما، في بيت ما، في بلد ما، من أجل ان يذكّرهم بما يفتقدون، كل يوم، لدى خروجهم من بيوتهم ولدى عودتهم إليها!. أو أن يعلق على جدار في صالة كبيرة، في مطعم، أو مقهى أو حانة، أو مبغى، يرتادها أشخاص من جنسيات، وأديان عديدة، ومختلفة، أغلبهم لا يعرفون اللغة العربية، ولكن التشكيل الفني، وجماليات الملصق، قد تثير انتباههم، وتسرق أنظارهم للحظات قليلة، ثم ينصرفون إلى ما جاءوا لأجله .

من حين لآخر، أجدُني محدّقاً في الملصق، ومتسائلاً عن الأسباب التي دفعت الخطاط الى التفكير في تحويل حرف الباء، في كلمة الحب، إلى أفعى بفم مفتوح، وكأنها تهمُّ بالتهام حرف الحاء: هل أراد، بذلك، الايحاء بأن الحبَ يلتهم نفسه، كما يتأهب حرف الباء لالتهام حرف الحاء؟ ثم، ما سر هذه النيران المضرمة من أسفل ومتصاعدة اللهيب إلى أعلى؟ وهل كان الفنان، تلك اللحظة، على عكس ابن عربي، في حالة غضب من الحب، أو من نفسه، أو من حبيبته حين بدأ في تنفيذ اللوحة، لذلك، اختار أن يجعل حرفَ الباءِ يلتوي في آخره كأفعى تتأهب للانقضاض على حرف الحاء، مما جعل حرف الحاء يتراجع منكمشاً من شدة الخوف، أو من هول المفاجأة، أو من الاثنين معاً؟ ثم، وكأن ذلك لا يكفي، يقوم باضرام نار مستعرة في كلمة الحب، وفي كل أرجاء البيت الشعري، بدون شفقة ولا رحمة، وكأنه ينتقم لنفسه من الحب، ومما قاساه .!

أحياناً أخرى، أتجاهل الملصق، وأتعمد اهمال مسح ما تراكم فوق سطح زجاجه، بمرور الوقت، من غبار، وكأني أريده أن يتذوق، مثلي، مرارة آلم الحرمان، ويستطعم معنى التجاهل، ويعاني، مثلي، من مواجع قروح الصمت والوحشة .

الحب، يقول صديقي الشاعر، يختارنا ولا نختاره. لكن صديقي الشاعر مات مختنقاً، ذات يوم، من انعدام الحب: فهل نلوم الحبَ الذي لم يختر صديقي الشاعر، وتجاهله، طوال تلك السنين، وتركه كذئب يعوي من شدة جوعه، في وحشة البراري والقفار؟

ذات مرة، مازلتُ، بحزن، أذكرها، وكنتُ أعاني من حالة عصابية، مرهقة. وكان الوقت مساء غارقاً في بحيرة صمت شتائي كئيب. وبدرت مني التفاتة نحو الملصق، فبدا لي وكأنه يحدق فيّ بعيون تنضح شماتة. فقمت، من فوري، من مكاني على الأريكة، كمن لسعه، فجأة، تيار كهربي، وأنزلته من مكانه على الجدار، وحملته بين

يديّ. وخطر في بالي أن أهرع به سريعاً نحو برميل القمامة، خارج البيت، وألقيه هناك، لاستريح منه. لكني تريثت قليلاً. وبدلاً من ذلك، وضعته خلف الأريكة، حيث أجلس، بحيث أتفادى النظر إلى تحديقه، ويتفادى، هو الآخر، ما قد يقترفه غضبي.

أحياناً، حين أكون مستريحاً في بدني، ومستغرقاً في ذكرياتي، وفي لحظة تصالح وود مع وحدتي وغربتي، أفكر في الخطاط الذي قضى وقتاً طويلاً، محاولاً أن يضع تصميماً فنياً وجمالياً لبيت ابن عربي، قبل تنفيذه، بحيث يتوافق مع يمر به من تجربة حياتية، أعتقد أنها لم تكن مُسِرّة. وكيف أهتدى، بوقع تلك التجربة الشخصية المُرّة، وما خلفته من أوجاع في قلبه، إلى الانتقام من كلمة الحب، بأن يضرم ناراً في بيت ابن عربي كله، وكأنه يود حرق ابن عربي، وحرق شِعره، والحب في هجوم واحد خاطف، وأخير . النار التي تسري في دمي، الآن، وتؤجج لهيبها الحارق في حنايا قلبي وعقلي، تختلف عن تلك التي كانت تحرق قلب الخطاط. ويقيناً أنها ليست نار قسوة الحب، بل نار قسوة افتقاده. تشبُّ من أول النهار إلى آخر الليل. وحين أهجع إلى فراشي، أحسُّ وكأني أنام على فراش من لهيب، ولا مفرّ. والزمن، بدوره، يزدرد أيامي، يوماً تلو آخر، بلا مبالاة، ولا يحسُّ بأوجاعي حبيب، ولا يرأف لحالي عزيز. والحب، الذي انتظرته، لم يأتِ. ولا أعرف متى سيأتي. لكني، وقد سُدتْ الطرق أمامي، سأنتظره بصبر أيوب. وحين يجيء، حتماً، يوماً ما، سيجد أبواب قلبي كلها مشرعة في انتظاره. وإذا أختار أن ياتي متأخراً، فهذا شأنه. كل ما يهمّني هو أن ياتي، لكي أرمم ما تكسر من آمال روحي، وأستشعر بالخلاص يعود إليها لانتشالي من ضحالة أيامي، ولاتذوق، مثل ابن عربي، متعة عذوبته، وليكون، برضاي واختياري، إلى آخر ما تبقى من أيام عمري، ديني وإيماني :

ماذا سأفعل لو أن الحبَ، بخبثه المعهود، كان قد قرر، دون علمى، ومنذ زمن، محو اسمي من قوائم المنتظرين في دفاتره؟

لندن – ديسمبر 2019

ثورة بائع الريح

الصديق بودوارة

لم يكن عادياً ذلك اليوم، عندما توفي "امراجع بائع الريح" وعندما اكتملت إجراءات تجهيزه للدفن رفض أن يذهب إلى المقبرة.

ساد الهرج والمرج، واجتمعت "أم الجراد" بشيبها وشبابها في مليونية حاشدة لم يتجاوز عدد أفرادها الثلاثمئة، هم كل رجال البلدة، أما النساء فاكتفين بمراقبة الحدث من وراء شقوق نوافذ بيوتهن العتيقة.

ـ عليك أن ترضخ لسلطة الأمر الواقع، يجب أن تذهب معنا إلى المقبرة يا بائع الريح.

كان مختارنا المهيب يتحدث إلى المتوفي المشاغب، ورذاذ فمه المبارك يتطاير ليقع برداً وسلاماً على قماش الكفن الأبيض الناصع، لكن الميت كان يرى الأمر من زاوية مختلفة :

ـ عليكم اللعنة، وأنت بالذات، عليك ألف لعنة، لم أعد من الأحياء كي أخافك وأخشى سطوتك، أنا الآن ميت، هل سمعتني يا برميل القمامة الذي عشنا ألف سنة نسميه مختارنا المهيب؟

كان صوت الميت واضحاً جهورياً، وكانت معانيه صادمة للجميع، وفجأة لمعت عيون سكان البلدة بوميضٍ لم يسبق لهم أن عاينوه من قبل، واقتربوا أكثر من النعش وهم يستمعون باهتمام إلى الجثة "المندسة" حسب تعبير المختار:

ـ نعم، أنا أعني ما أقول، ما الذي يجبرني على الذهاب إلى المقبرة ليدعو لي لص مثلك؟

لن أقبل أن أركض على الصراط مصحوباً بصوتك البشع ومفرداتك الميتة، كنت مجبراً على الطاعة عندما كنت من الأحياء، ولكن، لماذا استمر في الخنوع لك ما دمت قد أصبحت جثةً لا تقع تحت طائلة حكمك المقزز؟

لن أذهب إلى المقبرة، أريد أن أتعفن في داري ويأكلني الدود، هذه جثتي وأنا حر في ما أصنعه بها، أريد أن أمارس حريتي للمرة الأولى يا برميل القمامة.

انصرف الجميع مذهولين برهبة المعجزة، لكن صباح اليوم التالي شهد حدثاً فريداً من نوعه لم تشهده "أم الجراد" منذ ملايين السنين، لقد كانت ساحة البلدة تغص بالجثث في أكفانها البيض، رجالاً ونساء، وكان الجميع يرفضون بإصرار أن يدفنهم المختار وأن يدعو لهم، مطلقين ألسنتهم الميتة بأقذع أصناف السباب في وجه "برميل القمامة"، ذلك الذي كنا ندعوه سابقاً بمختارنا المهيب .

لجنة الامتحان

فاطمة الزهراء بخيت – مصر

أجدني في لجنة امتحان، أمامي طاولة عليها كراس إجابة وورقة أسئلة في مادة تخصصي بالدراسات العليا. الأسئلة تتراقص أمام عيني، أحاول أن أفهم فلا أقدر، أسئلة غريبة كغرابة واضع الامتحان، أستاذ المادة، طيلة العام ونحن نشعر بغرابة أطواره وغرابة طريقة شرحه، يحكي لك حكايات ممتعة وحكايات مريرة في الحياة تنجذب لها لكن لا تفهم ماهي علاقتها بالمادة. تسأله عن مذكرات أو مراجع للمذاكرة فيقهقهُ ضاحكا: أية مراجع؟ الحياة هي المراجع!!!

ورغم ذلك كان المدرج يمتلئ بالزملاء بسبب قدرته على جذب من حوله وطريقته العجيبة في التدريس، فلماذا أنا وحدي هنا في تلك اللجنة اللعينة؟ أين زملائي؟!!

ثلاثة مراقبين يحاصرونني، رجلان وسيدة غريبة الأطوار هي الأخرى ترتدى بلوزة بيضاء وجونلة سوداء واسعة وطويلة، شعرها على هيئة كعكة ونظارتها سميكة العدسات، تشبه شخصية السيدة الشريرة في فيلم الشموع السوداء لولا النظارة، تنظر إليَّ بارتياب من ينظر لسارق او إرهابي سيخرج قنبلة ليفجر المكان .

اضطرابي جعلني أخرج علبة سجائري لأشعل واحدة، وجدتها فوق رأسي في ثانية تصرخ فيَّ كأم تصرخ في وجه ابنها: ماذا تفعل؟ ممنوع التدخين هنا!

انتزعت السيجارة من فمي وداستها بغلٍّ وقسوة تحت حذائها. نَظَرت لورقة إجابتي الفارغة ثم ابتسمت في شماتة قائلة: لم تكتب شيئا؟ أعلم أنه يدقق في كل حرف ولا يعطيك الدرجة بسهولة، فاكتب ودقق جيدا أو سترى منه عذابا مقيما!! لم أدر لِم كل هذا العداء غير المبرر تجاهي؟ !!

رجعت ثانية لورقة الإجابة وأنا مرتعب من تهديدها أحاول أن أكتب فلا يطاوعني عقلي على التذكر، وجدت المراقب الثاني يربت على كتفي برقة ويبتسم قائلا: لا تصدقها هي لا تعرفه حق المعرفة، هي تتمتع فقط بإرعاب الطلبة، اكتب ما

تستطيع تذكره، اكتب أي شيء فهو له وجهة نظر أخرى .

وحاولت جاهدا ان أكتب هذا ال(أي شيء)!! سَبَبتُ في سِرِّي الدراساتِ العليا وطلبتها وأساتذتها. كتبت كلاما لا أعرف إن كان له علاقة بالأسئلة أم لا، لا أدرى إن كنت قد كتبت أم أنى أتوهم أنى كتبت!! المراقِبة اللعينة تدمر أعصابي: باقي من الزمن ساعة.. خمسون دقيقة.. أربعوووووو !!! الضجيج يملأ رأسي فتكاد أن تنفجر، اقترب ثالثهم الذي لا أتذكر ملامحه، همس في أذني: هل تعتقد أنه يقرأ؟ هل تعتقد أنه يولى إجاباتكم أي اهتمام؟ قبض الريح!!!

نظر لي نظرة من يسخر من الأمر برمته وتركني وعاد مكانه أمام النافذة موليا ظهره لي وهو يدندن: زي الهوى يا حبيبي زي الهوى !!

لم تحتمل أعصابي عبثًا أكثر، مزقت ورقة الأسئلة وكراس الإجابة وخرجت لاعنا اليوم الذي نزلت فيه من بطن أمي.

قصص للكاتب الروسي دانييل خارمس

ترجمة عن الفرنسية: الحسن بنمونة - المغرب

حادث وقع لبيتراكوف

ذات مرة أراد بيتراكوف الاستمتاع بالنوم، لكنه، وهو نائم لم يُفلح في البقاء في سريره، إلى درجة أنه وهو يسقط، تعرض لأذى جسيم لم يقدر بعدها على النهوض. استجمع بيتراكوف قواه كلها وزحف على أربع. ولكن قواه خانته، فشرع يحبو مثل كومة.

خلال أربع أو خمس ساعات، ظل بيتراكوف نائما على البلاط. في البداية كان متكوما على نفسه، وبعد ذلك نام. أعاد النوم لبيتراكوف قواه فاستيقظ. نهض ودار دورة في البيت، ثم استلقى حذرا في سريره.

قال في نفسه :

- الآن أنا أنام جيدا".

إلا أنه لم يستطع النوم. تقلب في سريره ولم يغمض له جفن.

هذا كل ما جرى في الواقع.

حكاية

كان فيما مضى من الزمان، رجل يدعى سميونوف. ذات يوم ذهب للتنزه فأضاع منديله. شرع سميونوف يبحث عنه فأضاع طاقيته. ولما أخذ يبحث عنها أضاع بذلته. جَدَّ في البحث عن بذلته، فأضاع حذاءه.

قال سميونوف:

- عجبا، بهذه الطريقة سأضيع كل شيء. ولهذا يستحسن أن أعود إلى الدار.

سميونوف رجع إلى داره فأضاع نفسه.

قال سميونوف:

- لا، من الأحسن أن أجلس قليلا.

جلس سيميونوف على صخرة فغفا.

غراب بأربع أرجل

كان في ما مضى من الزمان، غراب بأربع أرجل. في الواقع كان له خمس أرجل، ولكن لا قيمة للحديث عنه هنا.

في يوم جميل، اشترى الغراب الذي له أربع أرجل البُنَّ وفكر :

"ها أنا إذاً قد اشتريت بُنًّا، ولكن ماذا أفعل به؟"

ولكن يشاء الحظ السيء أن يمر ثعلب بهذا المكان. لمح الغراب فصاح فيه:

- إيه، أنت..

وصاح فيه مرة أخرى:

- غراب.

ثم صاح الغراب في الثعلب:

- أأنت غراب أيضا؟

وصرخ الثعلب في الغراب:

- أنت، أيها الغراب، هل أنت خنزير؟

أغاظ الغراب لدرجة أنه رماه بالقهوة. فرَّ الثعلب مسرعا.

ونزل الغراب من الشجرة ثم مشى على أربع، أو هو مشى بالضبط على خمس في قذارة منزله.

الصندوق

رجل بعنق رقيق أغلق على نفسه، في صندوق فصار يختنق.

قال الرجل وهو يختنق:

- أختنق لأنَّ لي عنقا رقيقا. غطاء الصندوق مغلق وهو لا يدع الهواء يتسلل إليه. سأختنق ولكنني لن أفتح الغطاء. سأموت ببطء. سأعاين العراك بين الحياة والموت. هذه المعركة ستكون بطريقة مفتعلة متساوية، لأن الموت في الطبيعة دائما يكون هو الفائز، فيما الحياة محكوم عليها بالموت، تخوض ضد عدوها معركة خاسرة مسبقا، محتفظة بأمل غير نافع حتى الرمق الأخير. ولكن في هذه المعركة التي تدور رحاها الآن تصنع الحياة طريق انتصارها: لأجل الفوز يقتضي الأمر أن أمد يدي لرفع غطاء الصندوق. فلننظر: من يحمله؟ باستثناء أن تكون رائحة النفتالين غير مطاقة حقا.

إذا كانت الحياة هي الفائزة سأضع تبغا في القماش...ها هي الأمور تسوء، أنا لا أستطيع التنفس. أنا ضائع، وهذا أمر منطقي. لن ينقذني أحد ألبتة. وليس ثمة فكرة ناضجة في رأسي. أنا في الواقع أختنق.

آي. ما هذا؟ أحد ما حل بالمكان في هذه اللحظة، ولكنني لم أستطع أن أفهم بالضبط ما يحدث. لمحت شيئا ما، أو سمعت صوتا ما..

آي. مر أيضا شيء ما؟ ياإلهي. ليس في الصندوق هواء كاف. فكرت في أنني أموت..

ما هذا، مرة أخرى؟ لماذا أنا أغني؟ يبدو لي أن بي ألمًا بالعنق.. ولكن أين هو الصندوق؟ لماذا أرى كل ما يضمه بيتي من أشياء؟ ولكن يبدو أنني نمت على البلاط.

وأين اختفى الصندوق؟

نهض الرجل الذي له عنق رقيق ونظر حواليه. اختفى الصندوق. فوق المقاعد والسرير وضعت الأشياء المستخرجة من الصندوق، أما هذا فقد اختفى.

قال الرجل الذي يمتلك عنقا رقيقا:

- هذا يعني أن الحياة غلبت الموت، بوسيلة لا أعرفها.

الصيادون

ذهب ستة أشخاص إلى الصيد، لكن المشكلة هي أن أربعة منهم فقط من عادوا. والمشكلة كذلك أن الاثنين الآخرين لم يعودا قط.

أكنوف وكزلوف وستريوشكوف وموتيلكوف، عادوا إلى المنزل بصحة جيدة وسالمين، ولكن شيروكوف وكابلوكوف هلكا في الغابة.

عند العودة، كان أكنوف كئيبا ووحيدا، ولم يرغب في التحدث إلى الآخرين طوال اليوم. لحق به كزلوف ليزعجه بلا كلل بأشكال من الأسئلة، منغصا صفوه وجالبا له أقصى حالات الغضب.

كزلوف: أتريد سيجارة؟

أكنوف: لا.

كزلوف: أترغب في أن أحمل إليك هذا الشيء الكبير؟

أكنوف: لا.

كزلوف: تريد ربما أن أحكي لك نكتة؟

أكنوف: لا.

كزلوف: هيا، تريد أن تتناول شرابا؟ عندي شاي وكونياك هنا في البيت.

أكنوف: لا، أنا لا أنوي أن أضرب رأسك بهذه الحجرة فقط، بل سأنزع ساقك أيضا.

ستريوشكوف وموتيلكوف: ماذا تفعلان؟ ماذا تفعلان؟

كزلوف: ارفعاني قليلا.

موتيلكوف: لا تبتئس، سيشفى الجرح.

كوزلوف: أين هو أكنوف؟

أكنوف (وقد نزع ساق كوزلوف): أنا هنا، لست بعيدا.

كوزلوف: يا إلهي. النجدة.

ستريوشكوف وموتيلكوف: يبدو أنه نزع ساقه.

أكنوف: نزعت وألقيت هنا.

ستريوشكوف: هذه جريمة لا إنسانية.

أكنوف: ماذا؟

ستريوشكوف: لا- لا- إنساني.

أكنوف: ما هذا؟

ستريوشكوف: ل..ل..لا شيء.

كوزلوف: ماذا أفعل للذهاب إلى المنزل؟

مولتيكوف: لا تبتئس، نضع لك مكانها قطعة خشب.

ستريوشكوف: تستطيع أن تبقى واقفا بساق واحدة؟

كوزلوف: أجل، ولكني لن أستطيع القيام بذلك مدة طويلة.

ستريوشكوف: حسن، سنساعدك.

أكنوف: تنح جانبا، أريد المرور..

ستريوشكوف: لا، من الأفضل أن تذهب.

أكنوف: لا، اتركوني. اتركوني. اترك..هذا ما أريد القيام به.

ستريوشكوف ومموتيلكوف: يا له من رعب.

أكنوف: آي، آي، آي.

موتيلكوف: ولكن أين هو كوزلوف؟

ستريوشكوف: زحف إلى الدغل.

موتيلكوف: كزلوف، أأنت هنا؟

كوزلوف: تشا تشا..

موتيلكوف: إن كان فعلا لا يزال هنا.

ستريوشكوف: ما الذي نستطيع فعله معه؟

موتيلكوف: أعتقد أنه في هذا الوضع، لن نستطيع فعل أي شيء. ببساطة يجب خنقه. كوزلوف. مهلا، كوزلوف؟ أتسمعني؟

كوزلوف: أنا...أنا أسمعك، ولكن الصوت خفيض.

موتيلكوف: هيا، سنخنقك. انتظر. هكذا. هكذا..هكذا..هكذا..

ستريوشكوف: اضغط في هذا الموضع قليلا. هنا. جيد. جيد. جيد. هيا. وأخيرا، أُنجز العمل.

موتيلكوف: أُنجز العمل.

أكنوف: فليرحمه الله، آمين.

المــــرأة

يقول بوشكوف:

- المرأة آلة للحب (فيتلقى في الحين ضربة أصابت فمه).

تساءل بوشكوف:

- ولكن لماذا؟

لكنه لم يتلق جوابا على سؤاله، فواصل كلامه.

ما أفكر فيه هو: يجب الاقتراب من المرأة من تحت. النساء أحببن هذا، وشرعن في التظاهر بأنهن لا يرغبن فيه. هنا، تلقى بوشكوف ضربة أصابت فمه.

قال بوشكوف:

- ولكن، ما هذا، أيها الرفاق؟ إذا كان الأمر يتم بهذه الطريقة، فأنا مجبر على الصمت.

وبعد توقف دام خمس عشرة ثانية، واصل:

- خُلقت المرأة بطريقة تكون فيها طرية وندية.

هنا تلقى بوشكوف ضربة أخرى أصابت فمه. حاول أن يبدو غير مهتم بما يقع، وواصل:

- إذا شممنا امرأة...

ولكن هنا، تلقى بوشكوف في خده ضربة، من خشب شجرة كستناء. كانت ضربة عنيفة بما حملت اليد من قوة.

قال:

- أيها الرفاق، من المستحيل إطلاقا أن نقدم درسا في مثل هذه الظروف. إذا تكرر هذا أصمت..

وانتظر بوشكوف بعض الثواني وواصل:

- أين توقفنا؟ آه، نعم.

إذاً: المرأة تحب أن تنظر إلى نفسها. تجلس قبالة المرآة عارية تماما..

عند النطق بهذه الكلمة تلقى ضربة جديدة في فمه.

- عارية.

صاح بوشكوف.

- عارية.

طفق بوشكوف يصرخ:

- عارية. امرأة عارية. كتكوت أشعر.

انهالت على فمه الضربات.

- كتكوت أشعر بمقلاة في اليد.

الضربات تنهال على بوشكوف.

صاح بوشكوف وهو يتفادى الضربات:

- عنق كتكوت.

- راهبة بشعر.

ولكن، في هذه اللحظة ضُرب بوشكوف بعنف، وهذا أفقده الوعي، فسقط إلى الأرض وكأنه حطام.

حكمة

أمقت الناس القادرين على التحدث، لسبع دقائق دون توقف.

رجلان

رجلان شرعا يتجادلان. وفي هذا الجدال، صار الأول يتمتم بالحركات، والآخر يتمتم بالحركات والسواكن.

عندما انتهيا من الكلام، بدأنا نشعر فجأة أننا في مزاج حسن..

كما لو أننا أطفأنا نار موقد.

كوشاكوف النجار

فيما مضى من الزمان، كان ثمة نجار يدعى كوشاكوف. ذات يوم، خرج من بيته، ودخل دكانا لشراء لِصَاقِ خشب. كان موسم ذوبان الثلوج، وكانت الطرقات زلقة جدا.

خطا النجار بضع خطوات، زلق فسقط إلى الأرض، وعندها انفلقت جبهته.

صاح النجار.

- آه.

وقام واتجه إلى الصيدلية لشراء لَزْقَةٍ طبية، فألصقها بجبهته. لكن، وهو في الطريق، بعد أن خطا خطوات قليلة، زلق مرة ثانية، فسقط وانشق أنفه .

صاح النجار:

- أف.

وهو يتجه إلى الصيدلية لشراء لزقة طبية، ويلصقها بأنفه. وعندما كان يمشي في الطريق، زلق وسقط فانفلق خده. كان عليه أن يذهب مرة ثالثة إلى الصيدلية، ليلصق لزقة طبية بخده.

قال الصيدلي للنجار:

- أصخ السمع، إنك تسقط وتصاب بجروح، لهذا أنصحك بشراء لزقات طبية كثيرة مرة واحدة.

رد النجار:

- لا. لن أسقط أبدا.

لكن وهو في الطريق، زلق مرة رابعة. سقط فانشق ذقنه.

هتف النجار:

- جليد قذر!.

وجرى إلى الصيدلية مرة أخرى.

قال له الصيدلي:

- ها أنت ترى أنك سقطت مرة ثالثة.

صاح النجار:

- كلا. لا أريد أن أسمع لوما. أعطني بسرعة لزقة طبية.

أعطاه الصيدلي لزقة طبية.

ألصقها النجار بذقنه وجرى إلى بيته. ولكن هناك لم يتعرف إليه أحد، ولهذا السبب لَمْ يَدَعُوهُ يدخل الشقة.

صاح النجار:

- أنا كوشاكوف النجار.

يردون عليه من الداخل:

- تتذرع دائما بعذر.

وأحدهم أغلق الشقة بالكمّاشة والسلسلة.

بقي النجار كوشاكوف لحظات في الدرج، وبصق لأنه كان مغتاظا، ثم خرج إلى الطريق .

من كتاب: Christian Bourgois éditeur.1993 - Daniil harm - (Écrits)

- دانييل خارمس كاتب روسي ولد سنة 1905 أسس مع رفقة من الكتاب الروس جماعة أوبريو الأدبية. مات سنة 1942 في السجن بفعل الجوع والبرد. وقد ترجمت أعماله إلى لغات عديدة فنالت الإعجاب والتقدير. له أعمال قصصية منها: (حوادث- كتابات- العجوز- نمر في الطريق- أولا، ثانيا..).

تلك بلادي ... فأنقذوها

خالد درويش

البلاد التي غادرتها المواويلُ

وأجدب في ساحاتها الحب

وشطّت بها الأحصنة،

تلك بلادي...

البلاد التي أجهزت على

كل العصافير

واغتالت الزقزقة،

تلك بلادي...

البلاد التي فرطت في كل شيء

وألقت بباقات الأزاهير

في المحرقة

تلك بلادي...

البلاد التي أرضعتني الشبق

وعلمتني الغناء، لم أهتدي

في دروبها للحنين

ثمة نورس في راحتيها

يئنُ

ثمة لوحة باهتة،

لوحة ككل أسرارها

في بركة الدم غارقة

تلك بلادي...

البلاد التي يغرس أهلها السكاكين

في صدرها

وهم يصرخون:

الله أكبر

يقطعون أوردة العشب

يأججون السغب

ويخنقون روحها بالعطب

ويغرسون في قلبها إزميلهم وهم يهتفون

(ليبيا حرة)،

تلك بلادي...

تلك بلادي.. التي

أقول لكم أنقذوها ..

وأصرخ ملء الزمان

وملء المكان

وملء المدى..

أنقذوها

لأن القبائل إن صادفوا ثورة أفسدوها.

تأريق وقت

أكرم اليسير

أؤقت صباح أرقي
زقزقة زقزقة
فتسبح نسمة باردة في رئتي
وأرشف سأمي وأبدأ..

هذا النهار يبدو طويل الفكرة
وعصي النوم
تسحبني يد السرير نحوها
ليستيقظ أطفال لعبي
ويعاد المشهد
وأدّعي أنا الصمت..

كنت أركض بالأمس صوب محترقٍ
وأقبِّل عنق الزجاجة كي يسيل الموقفْ

وأضعني تحت أنقاضٍ ما

وأعيد الكرّة لاهثاً لتلويحة مسعف..

كسرت فأسي وأنا أحفر النفق

فأغضبت الخلد المسكين

والواضح كبشري

أنني ينهكني الظلام و الحَفْر..

كنت أتكوّر على نفسي جاعلاً

من شتائمي أشواكاً

حتى ربّت أحدهم على خوفي

فنسيت القَنْفَذَة وقلت أحبك..

يا هذا الليل توقف

أريد أن أسألك،

هل مرت تفاحة ضاحكة من هنا؟..!

افتح عينيك

لأذرو فيهما تراب الوطن

حتى تتوقف عن التخندق

واستعمال السواتر كلما غالبك مهر خطيبتك..

سأختار لعبة أخرى

كأن أعد للعشرة ثم أركض باحثا عني،

وأفقدني

ليجدني ابني وهو يقول بابا..

خرافة لاشك هي

شجرة مشمش يمكنها شفاء الأيتام،

عليك أن تعيد ترتيب المعركة وتعلّق تميمة حرب..

وأنا أجلد ذاتي

نسيت الصراخ،

لذلك أعتقدني قد تأدبت...

يدير لي الكرسي ظهره

مع أني لم أتدخل في مشكلته مع القبعة..

كان على النهر أن يجف

فقد توقفت ساعتنا عن الغناء للمطر..

لم يكن ذيل حصان

ولكن شعرها كان ذيل عقرب..

سيجارة سيجارة

تنتهي القصيدة ويلعنني النوم الذي يقفل الباب..

على عتبات هولدرلين

شاهر خضرة – سوريا

أيها الموتُ الملتهبُ في لحدِه

أُوقدُ روحي فوق ألسنتِك

ليصيرَ جسدي وعاءً

يغلي بذاتِك الخالدة؛

بذاكرتي التي تبقَّعَتْ كخشبِ "إرنيست تسيمَّر "1

تحت صومعتِكْ.

كفّاي صارتا لغتين؛

منديلين مطرّزَين بأبجديتين

يرفرفان فوق رفاتِك

اخضرَّ نُواحُهُما

كنهرِ "نيكار "

النهر الذي ما زال ماؤه مرتعشاً

في كل قصيدةٍ يقرؤها العشّاق.

...

غرفتُ بيدي ماءً

رشَشْتُ بهِ الوجومَ،

فتفَطَّرَ وأخرج أوراقه

من صومعتِكَ

الجزيرةُ النهريّةُ مدّتْ شفاهها

لتهمسَ للواديين:

هنا جارُنا الأبديُّ

هنا من جَسَدُهُ الفصولُ،

النهرُ يُخَضِّلُ الضفافَ لأجله

يفيضُ ليبلغَ عينيه.

كيف لدمعةٍ واحدةٍ

أن تَشُقَّهُ كقارَبٍ

كتيّارٍ عَكْسَ مجراه؟.

هولدرلين !

ألقي عليك السلام بالعربية

أقرأ لك الشعر بالعربية

ففي عقيدتي:

كلُّ ميتٍ يتعلّم لغتَنا

يجادلُ بها الملائكةَ والله

ألمْ تُقَاضِهم بها عن بؤس عمرِك؟

ألم تصرخْ فِي وجوهِهم

أين "سوزيتّه"؟ 2

ألم تضعْ فِي الميزان شعرَك؟

هل احتملَ ثِقلَه؟

لقد خجلوا منك بلا ريب

فالخجلُ عربِيٌّ صميم يا يوهان!3

أعرف أن لغتَك لا تنتقلُ إلى الموت

وليس من قاموس لها فِي السماء

وها أنا كمُهْرٍ يُسرَجُ لأول مرّة

أصهلُ صهيلاً أرعن

وأرفِّسُ أقداري وكهولتِي

لأكون لائقاً

بأن أخاطبك كمحبٍ صغير

كمريدٍ يجيدُ قليلاً لغةَ الروح:

Ich sage Ihnen:

Guten Tod, oh Großartiger!

Das Leben unterdrückt Poesie nicht,

schlafen Sie in Ihrem deutschen Paradies,

hier ist die Ewigkeit.

Stuttgart-Deutschland
08.08.2019

كتبت في زيارتي إلى مدينة توبنغِن حيث قبر الشاعر الألماني العظيم هولدرلين Johann Christian Friedrich Hölderlin (1770-1843).

1- اسم النجّار الذي تكفّل برعاية الشاعر هولدرلين في بيته لعقود في مرضه النفسي.

2- سوزيته: هي المرأة التي أحبها الشاعر وفي موتها اعتزل العالم مجنونا

3- يوهان: الاسم الأول للشاعر: Johann Christian Friedrich Hölderlin

مرثية جان دمو

كمال اخلاقي - المغرب

ترك الصرخة في بئر أحلامه

غيمته المجروحة تحت لسانه

النخلة وحبات رمل

كتبه القديمة التي أحرقها على جانب النهر

ورقص طويلا على رمادها

في منشأة الخيال

عمل حفارا للذكريات

مهندسا للكلمات

مربيا لطيور الفجر

حارسا لليل القصائد

طحانا لحبوب اليأس

خبازا في أفرن الحواس

كأنه دمعة هوت في صحراء

كتلة دم باردة

في رحم سوداء

تعجن بالصدى

وتعود بعد الموت بقليل

على هيئة نزيف حاد

كأنه حطام سفينة غارقة منذ الأزل

في القاع رأى خزائن

ذهب وأحجار كريمة

ثعلب البحر وقنديله

رأى المرأة التي نصفها سمكة

والسمكة العملاقة التي تحمل

على ظهرها جزرا

جزيرة الكنز المفقودة

وملكها المفتون بصولجانه

في القاع رأى ظله.. صمته.. ضوءه.. موته..

في القاع رأى كل شيء ومات.

مناشط وفعاليات..

جائزة مفتاح بوزيد للصحافة في دورتها الرابعة 2020م

أعلنت لجنة جائزة مفتاح بوزيد للصحافة عن أسماء الفائزين بالجائزة في دورتها الرابعة لهذا العام 2020م، وذلك يوم الثلاثاء 2020/05/26، بتنظيم وإدارة الهيئة العامة للإعلام والثقافة والمجتمع المدني بالحكومة الليبية ومؤسسة برنيق للصحافة والإعلام.

أولا: جائزة مفتاح بوزيد التقديرية للصحافة وفاز بها مناصفة الكاتب الصحفي سالم العبار والكاتب الصحفي علي شعيب وذلك تقديرا للمسيرة الحافلة في مجال الصحافة والاعلام.

ثانيا: جائزة مفتاح بوزيد التشجيعية للصحافة وفاز بها مناصفة كلا من الصحفية أحلام المهدي ورسام الكاريكاتير الصحفي عبدالحليم القماطي وذلك لتميز الاعمال الصحفية التي تقدما بها.

ثالثا: قررت لجنة جائزة مفتاح بوزيد للصحافة منح درع تكريمي لعدد من القامات الصحفية التى انتقلت الى رحمة الله تقديرا وتكريما لما قدموه للصحافة الليبية من جهود كان لها الأثر الطيب؛ حيث كرم كل من: الكاتب الصحفي الراحل/ السنوسي العربي الهوني. الكاتب الصحفي الراحل/ عبدالرسول العريبي. المصور الصحفي الراحل/ أحمد السيفاو.

رابعا: قررت لجنة جائزة مفتاح بوزيد للصحافة منح درع مفتاح بوزيد للصحافة العربية سنويا لصحفي عربي قدم مساهمة متميزة في تقديم صورة حقيقية لليبيا في الصحافة العربية وقد قررت منح درع مفتاح بوزيد للصحافة العربية لهذا العام 2020 للصحفي العربي القدير أحمد عامر من مجلة الأهرام العربي.

إبداع اليافعين في دورته الثالثة

للسنة الثالثة على التوالي، تنظم منظمة (أمالنا للإعلام والتنمية الشاملة)؛ المهرجان الأدبي لإبداع اليافعين، على مستوى ليبيا للأطفال من 12-17 سنة، وهي الفئة التى يطلق عليها اسم اليافعين.

سيشمل المهرجان مناشط أدبية وأمسيات شعرية وملتقى ثقافياً ويتضمن المسابقة الأدبية في الشعر الفصيح، المقالة، القصة القصيرة، الخاطرة.

الأماني والوهايبي في أمسية إلكترونية

ضمن فضاءات إلكترونية، الذي يقيمه بيت الشعر بالقيروان، بتونس، أقيمت الأحد 17 مايو 2020م، أمسية شعرية تونسية ليبية، تجمع كل من الشاعرين؛ منصف الوهايبي، الشاعر الشاب "هود الأماني". الأمسية بثت إلكترونيا عبر صفحة بيت الشعر بالقيروان.

شطيرة الكتب والقصص الطبية

أعلنت دار شطيرة الكتب للنشر والتوزيع، بنغازي، عن فوز 17 قصة قصيرة، في المسابقة التي أطلقتها، والتي خصصتها للأقلام الطبية من طلبة وخريجين، على مستوى ليبيا، والتي من المزمع نشرها في كتاب ورقي.

وكانت الدار اشترطت للمشاركة في هذه المسابقة أن تحتوي القصة على معلومات طبية يستفيد منها القارئ، إضافة للفائدة الأدبية.

المغيربي يترجم استقلال ليبيا

عبر حسابه الشخصي على الفيسبوك، أعلن أستاذ العلوم السياسية بجامعة بنغازي، الدكتور "زاهي المغيربي" عن انتهائه من ترجمة كتاب (استقلال ليبيا والأمم المتحدة)، وبحسب منشور "المغيربي" على حسابه: أنه (يبقى أمران: مراجعة أخيرة ودقيقة للترجمة؛ والتفكير في كيفية طبع الكتاب ونشره).

أوتوبيس طرابلس

بمناسبة اليوم العالمي للكتاب، وعبر حسابه الشخصي على الفيسبوك، أعلن الكاتب "عبدالمنعم الدبسكي" عن انتهائه من كتاب كتابه (أوتوبيس ذاكرة شوارع طرابلس)، والذي يتناول شوارع مدينة طرابلس من خلال محطات ثقافية.

نصيب يقرأ درويش قبل هجوم الكورونا

أقيمت بمدينة مونتليو الفرنسية، أمسية شعرية بمناسبة صدور كتاب جديد لمجموعة قصائد للشاعر "محمود درويش"، وذلك قبل قيام الحكومة الفرنسية بحظر التجمعات. في هذه الأمسية قام الكاتب والقاص الليبي "فتحي نصيب" بقراءة مجموعة من نصوص درويش باللغة العربية.

51 بحثاً في ملتقى الأدب والنقد

أعلن رئيس الملتقى الوطني الدولي الأول للأدب والنقد في ليبيا، الدكتور "سليمان زيدان"، عن قائمة البحوث المشاركة في الدورة الثانية للملتقى، والذي من المزمع إقامته خلال الفترة من 18 إلى 20 أغسطس بمدينة طبرق.

ووصل عدد البحوث التي استلمتها اللجنة التحضيرية للملتقى إلى 87 ورقة بحثية، بنهاية الأجل المحدد لاستلام ملخصات البحوث. حظي 51 عنوانا منها بالإجازة، على أن تستلم البحوث كاملة في الموعد الذي حدد لذلك.

رحلوا عنّا..

الفنان التشكيلي مرعي التليسي في ذمة الله

في الـ28 من مايو 2020م؛ أعلن عن وفاة الفنان التشكيلي "مرعي التليسي"، عن عمر يناهز 63 عاما، نتيجة سكتة قلبية، بمدينة طرابلس.

الفنان "مرعي التليسي"، من مواليد مدينة بنغازي العام 1957م. قام بترتيب وإقامة العديد من المعارض الفنية الجماعية على مستوى ليبيا عندما كان يعمل في إدارة الفنون التشكيلية في ثمانينيات القرن الماضي، بإدارة الفنون التشكيلية (أمانة إعلام طرابلس). رسام ونحات ومصمم غرافك ومصور فوتوغرافي.

الفنان التشكيلي الليبي عبد السلام النطاح في ذمة الله

انتقل الي رحمة الله في الـ20 من مايو 2020م، الفنان التشكيلي الليبي "عبد السلام النطاح" بسلطنة عمان بعد معاناة مع المرض.

الفنان مصطفى المصراتي في ذمة الله

أعلن الثلاثاء 12 مايو 2020م، عن وفاة الفنان الليبي "مصطفى المصراتي" بعد صراع طويل مع المرض. وكان العديد من الفنانين والمهتمين بالشأن الفني وجهوا الدعوة لتقديم يد العون للراحل في رحلته العلاجية.

بدأ الراحل رحلته الفنية مبكراً من خلال الحركة الكشفية والأنشطة الفنية بنادي (ميزران)، ويعتبر العام 1968م البداية الحقيقية للفنان، حيث كان يقدم كل جمعة صحبة مجموعة من الفنانين مسرحية على الهواء من خلال الإذاعة. من مؤسسي المسرح الحر، كما تولى إدارته لفترة، كما ساهم في تأسيس فرقة السراج المسرحية.

مثل في العديد من الأعمال المسرحية والإذاعية والمرئية، كما ساهم بالكتابة في مجال المسرح والدراما.

الفنان عبدالرحمن قنيوة في ذمة الله

ودعت مدينة طرابلس يوم الجمعة 27 مارس 2020م، رمزاً من رموز الفن والإبداع الشيخ "عبدالرحمن قنيوة." بعد معاناة مع المرض.

ولد الراحل العام 1943م، بقرية وادنة بمدينة مسلاتة. وقد التحق مبكرا بالحركة الكشفية. تحصل على ماجستير من الولايات المتحدة الأمريكية في إدارة شئون النفط. تولى إدارة معهد جمال الدين الميلادي للموسيقى. كما تولى إدارة المركز القومي لدراسات وبحوث الموسيقى العربية.

المخرج محمد القمودي في ذمة الله

أعلن يوم السبت 14 مارس 2020م، عن وفاة الكاتب والمخرج المسرحي "محمد القمودي" عن عمر يناهج الـ73 عاما.

الراحل من مواليد العام 1947م، بمزدة، درس الابتدائية والإعدادية بمدينة طرابلس. شارك في النشاط المدرسي المتكامل الأول في النصف الثاني من خمسينيات القرن الماضي مع مدرسة (أبوهريدة الابتدائية) باسكتش (بائع الدجاج)، حيث شجعه أحد الزملاء للإنضمام الى نادي (النصر الثقافي الأجتماعي) حيث كتب أول عمل له وهو عبارة عن تمثلية قصيرة بعنوان (اليتيمة). في العام 1973 التحق بدورة في في المسرح بمعهد جمال الدين الميلادي، ثم حصل على دورة في الإخراج المسرحي بالمجر العام 1976م. قدم العديد من المسرحيات ككاتب ومخرج مسرحي، وشارك في العديد من المهرجانات المسرحية، والندوات التي تهتم بالمسرح.

صدرت له (مسرحية الخن) مطبوعة عن منشورات مجلة المؤتمر في العام 2005م.

إصدارات..

خليفة حسين مصطفى وأدب الأطفال

عن دار أفاتار للطباعة والنشر، القاهرة، صدر للباحثة الدكتورة "حنان الصغير أبوالقاسم"، كتابها (الدور الريادي للكاتب الليبي خليفة حسين مصطفى في أدب الأطفال)، وهو دراسة في الشكل والمضمون.

صدور الترجمة الإنجليزية لزرايب العبيد

عن دار نشر جامعة سيراكيوز الأمريكية، صدرت الترجمة الإنجليزية لرواية (زرايب العبيد) للكاتبة والروائية "نجوى بن شتوان"، تحت عنوان (The Slave Yards) .

قامت بالترجمة السيدة "نانسي روبرتس"، والتي قامت بترجمة عديد الأعمال الروائية عن العربية إلى الإنجليزية.

تمثال يخون الحجر

عن دار إمكان للنشر والتوزيع في طرابس، صدرت مجموعة شعرية جديدة للشاعر"محيي الدين المحجوب" بعنوان (تمثال يخون الحجر).

تقع المجموعة في 198 صفحة من القطع المتوسط، وتنوّعت أشكال الكتابة فيها ما بين الشذرة والومضة.

مجلة ابن منظور

عن الجمعية الليبية لعلوم اللغة العربية، صدرت الثلاث الأعداد الأولى من مجلة (ابن منظور) للدراسات اللغوية والأدبية، وهي مجلة علمية محكمة نصف سنوية، برعاية جامعة طبرق.

الأعداد الثلاثة احتوت ما قدم من بحوث ودراسات في أعمال المؤتمر الدولي الأول لكلية الآداب – جامعة طبرق، والذي جاء تحت عنوان (تطور علوم العربية بين الأصالة والحداثة)، والذي انعقد خلال الفترة من 28 يونيو إلى 1 يوليو العام 2019م.

مجلة الإعلام والفنون

عن مدرسة الإعلام والفنون بالأكاديمية الليبية، طرابلس، صدر العدد الأول من مجلة (الإعلام والفنون)، وهي مجلة علمية محكمة، تصدر فصلياً. العدد احتوى مجموعة من الدراسات والبحوث ذات العلاقة بالإعلام والفنون.

حكاية مشط

عن مكتبة الكون في القاهرة صدرت المجموعة القصصية للقاصة الليبية "هدى القرقني" بعنوان (حكاية مشط)، تضم المجموعة 26 قصة قصيرة مستقاة من الواقع، متنوعة المواضيع، تبرز من خلالها القيم الأخلاقية والإنسانية التي أخذت في الاضمحلال شيئا فشيئا.

المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر عبدالحميد بطاو

عن الدار العالمية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، صدرت المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر "عبدالحميد بطاو"، والذي جمع فيه خمس مجموعات شعرية، صدرت له سابقاً؛ وهي:

- تراكم الأمورالصعبه.
- عندماصمت المغنّي.
- مرثيّة مرائيــه.
- أشجان هذاالزمـان.
- أين هــم الآن.

الغرفة 20

عن دار شطيرة الكتب للنشر والتوزيع، صدرت المجموعة القصصية (الغرفة 20)، والتي تقدم فيها 20 قصاصاً شاباً في تجربة تمزج بين قصص الرعب والبوليسية. وهي تتعهد بأنك بعد خروجك من هذه الغرفة، لن تكون كما دخلت.

وهذه التجربة، هي ليست التجربة الأولى للدار، حيث سبقتها تجربة أولى وهي رواية (تساعية إغدراسيل) حيث جمعت الروائي الأردني "أيمن العتوم" بعشرة كتاب شباب. وهي فرصة للكتاب الشباب في وقت يصعب فيه النشر على المستوى الشخصي.

شيخ الظل

عن النخبة للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، صدر العمل الروائي المعنون بـ(شيخ الظل) للكاتب الليبي "البدري الشريف المناعي".

يقع العمل في 197 صفحة من القطع المتوسط، حيث يمكن تصنيف هذه الرواية كرواية قصيرة أو (نوفيلا). وقدم لهذه الرواية الكاتب الراحل "أحمد إبراهيم الفقيه".

خواطر الكنانة

عن إمكان للطباعة والنشر، طرابلس، صدر للدكتور "امحمد علي أبوسطاش"، ديوانه الشعري (خواطر الكنانة)، والذي يحتوي على القصائد التي كتبها أثناء دراسته العليا في مصر.

بدايات الصحافة في مصراتة

صدر للكاتب الليبي "علي رشدان" كتابه المعنون (بدايات الصحافة في مصراتة، النشأة والتأسيس) عن دار إمكان للطباعة والنشر.

ويبحث هذا الكتاب في الصحافة الصادرة في مصراتة في مرحلتي النشأة والتأسيس، خلال مرحلتين تمتدان زمنيا من سنة 1917 إلى سنة 1972.

نقد العقل القبلي

تحت عنوان (نقد العقل القبلي) صدر للأستاذ "حسين الساكت" كتابه الذي يقدم فيه ما يراه من دور طبيعي للعلاقات القبيلة في المجتمع، ونقد لما وجد فيه من أفكار وممارسات تعيق تقدم المجتمعات وبناء الأوطان.

السمكيون والرأي العام

مأمون الزائـدي

1

"حضرتنا من الرأي العام..

صوت اللي ما إلهون صوت..

كيف حالك .. والله تمام ..عايش من قلة الموت"1..

- لنخفض صوت الأغنية قليلاً، هل تكتب لتوجّه الرأي العام؟ حسناً. وهذا الرأي العام هل بإمكانه أن يحدث فرقاً؟

- كلا فلقد تعرض للقمع ثم للنصب وفقد ثقته في هذه الأمور...

- وهل تكتب لحكومة تتذكر أن المواطن مخلوق يتنفس كي تضع في حسبانها آراءه وخياراته؟

- كلا الحكومة دائماً منشغلة برفاهيته وإسعاده وحمايته حتى من الوزن الزائد بعدم ضبطها الأسعار ومن إطالة النوم والتسكع الضار، بالإضافة إلى حرصها على سلامة عقله بعدم المساس به او تشغيله واستهلاكه وكذلك اعتنائها بحدة بصره بإبعاد الكتب وما على شاكلتها حتى يتمكن من رؤية إنجازاتها الرهيبة غير المسبوقة.

- إذا فأنت تكتب لإنارة الأمور وكشف خباياها بما لديك من ذكاء وسعة اطلاع حتى لا تنطلي الحيل والأحابيل على أحد.

- ومع ذلك لا يمكنك إنقاذ كل الحمقى والمغفلين فهناك دائما سُذّج وبلهاء. يمكن القول إن الغباء موهبة كالذكاء تماماً. والألاعيب تجد دائماً من تخدعه وتلك هي طبيعتها.

- إذن فأنت تكتب لتسجل موقفك وتبين أنك كنت فطناً ولم ينطلي عليك شيء أو ربما تحاول إلباس ما يحدث هنا ثوب ما يحدث هناك، مبررا ذلك بأن الإنسان واحد أينما كان. انتظر قليلاً ربما تكتب مروجاً لما يحدث. يقال إن إخوة يوسف ما كانوا يعرفون أن الذئب يفترس الإنسان، ولهذا أتوا على قميصه بدم كذب والقميص سليم غير ممزق.

- ربما تجد الإجابة فيما أكتبه.

- لم أذكر كل الاحتمالات الممكنة ولكن تلك إجابة جيدة. ما تكتبه وما لا تكتبه. كلاهما ضروري لفهمك بل أن الأخير أكثر إفادة.

- في نهاية المطاف من حقك أن تقول ما تشاء. لا تنسى أن المصادفة التكنولوجية العجيبة فقط هي من جعلت ما أكتبه معروضاً للقراءة. في أحوال أخرى لم يكن ليقرأ ما أكتبه أحد.

- ربما. التكنولوجيا جميلة. فلنشكر التكنولوجيا

- فلتحيا التكنولوجيا.

2

إبداء الرأي فيما يحدث حولك شيء بديهي ولا ينكره أحد انه وقبل أن تضعه في خانة حرية التعبير اللائق بموقعك من المملكة الحيوانية، رد فعل منعكس، وحق من حقوقك العصبية، آلية من آليات بقاءك البيولوجية ودليل مبدئي فقط على سلامة جهازك العصبي. لان الحكم على سلامة مخك وباقي جهازك العصبي يحتاج إلى معايير أخرى أكثر بكثير من مجرد رأيك الجميل .

رد الفعل هو نوع من الانفعال الذي تخلو منه الآراء الصائبة حتماً.

ولكي تُبدي رأياً -كما أتصور والمشواشيون2 أمثالي -أنت بحاجة إلى بيانات ومعلومات موثوقة ودرجة من الدراية والمعرفة حتى تلصق صفة الرأي بالكلام الذي تقوله. تخولك الخوض في الأمر دون أن تبدو ابلهاً او مغفلاً.

أو الأسوأ.

متحاملاً مأجوراً.

ليس بالضرورة أن تدفع لك جهة ما بل يكفي أن تكون تابعاً لغرورك وأناك التي تتوهم الأشياء ثم تصدقها. التي ترى أشياء وتغفل غيرها والتي غبش الانفعال يغطيها لا ترى أبعد من أنفها.

أنت بحاجة إلى الإدراك الجيد لأصول إبداء الرأي في المسائل التي لا تخصك وحدك. فالشأن العام ليس نوعاً من التبوغ او الألوان أو طريقة في إعداد القهوة حتى يكون على كيفك. والتي منها أن رأيك قد يكون صائباً ولكنه يحتمل الخطأ، وانه غير ملزم للأخرين ولا يستمطر أي لعنات او يستصدر أحكاما بالإدانة.

لكن هذه القواعد لا تنفع الا إذا كنت أصلا واع ومقتنع بأنك لا تعيش لوحدك وسط غرفة من الكراسي، بل مع أناس مثلك يفترض بك مساواتهم بنفسك على الأقل كي يكون رأيك الجميل خال من التحيّز او أي شوائب أخرى تلغي الحاجة إلى سماعه او الاكتراث به. كما يفترض بك أن تكون مستعداً لسماع رأي أولئك الأخرين الذين يفترض بهم ما يفترض بك: تقديم ما هو في مصلحة الكل.

عدا ذلك فرأيك مجرد لعثمة وصراخ.

3

أيها الصارخون..

هناك سمكيون، في هذه الحياة. بتلك النظرة الواسعة المستنجدة، في عيون فاغرة ورطبة لا توحي بالبكاء بل بالرعب الناجم عن موت أخرس وئيد وبطيء وبارد. دون رحيل. ضراوة المعاناة والخوف من الابتذال المهين وراء ذلك الاستجداء الصادم في تعبيرها.

ألا يكفي أيا كان ما يفتك بها حتى تحتاج إلى الانسحاق تحت حجارة قلوبنا المدللة، المنحدرة دوماً صوب أهواءها وشبقها المعربد بلا حياء.

كلما أمسكت سمكة في السوق، شعرت أن بين يدي بتلك البرودة وتلك الإتاحة وتلك النظرة الغائمة الضائعة، بشرياً مكلوماً ينتظر ملاك موته كخلاص. دون أن يسمع صراخه أحد.

هوامش:

1- أتت هذه الأغنية لسامي حواط بعد انفصاله عن زياد الرحباني عام 1982 بعد سنوات من العمل، شاركه خلالها في أهم المسرحيات، مثل فيلم أميركي طويل، وفي رصيده عدد كبير من الأغاني السياسية الساخرة. كتبها جورج يمين ولحنها وغناها سامي حواط. تبدأ بحوار بسيط يقدم حواط نفسه فيه على أنه المتكلم باسم الرأي العام.

2- أفراد قبيلة المشواش الليبية التي قد أبين علاقتي بها في وقت لاحق.